بـرداً وسلاماً

يوسف علي الجيران

بـرداً وسلاماً

رواية

قـنـديل | Qindeel

Being Cool and Peace

Yousef Ali Al-Jeeran

Novel

برداً وسلاماً

يوسف علي الجيران

(رواية)

© 2018 Qindeel printing, publishing & distrubtion

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، و بأي طريقة، سواء
أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم خلا ف ذلك،
إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

موافقة « **المجلس الوطني للإعلام**» في دولة الإمارات العربية المتحدة
رقم: MC-02- 01-2194597 تاريخ 2018/9/2

ISBN: 978 - 9948 - 39 - 638 - 3

Qindeel | قنديل

للطباعة والنشر والتوزيع

Printing, publishing & Distribution

ص.ب: 47417 شارع الشيخ زايد

دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة

البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae

الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

© جميع الحقوق محفوظة للناشر 2018

الطبعة الأولى: تشرين الثاني / نوفمبر 2018 م – 1440 هـ

أُنجزت هذه الرواية بإشراف

الروائي طالب الرفاعي

في إطار برنامج دبي الدولي للكتابة

مشروع نابض.. وجيل واعد

منذ إطلاق «**برنامج دبي الدولي للكتابة**» عام 2013، تحت رعاية سمو الشيخ أحمد بن محمد بن راشد آل مكتوم، رئيس **مؤسَّسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة**، كان علينا مضاعفة الجهود؛ لنكون أكفاء لتحمُّل مسؤولية إعداد جيل من الكتَّاب الشباب لحمل مشعل الفكر، وليصبحوا في مصاف الكتَّاب العالميين، وقد آلينا على أنفسنا أن نذلِّلَ كلَّ العقبات التي تحُول دون نجاح هذا المشروع الحيوي النابض، الذي يعكس وجهاً حضاريّاً آخر من وجوه دبي.

وها نحن ذا، نرى عشرات الكُتَّاب الشباب الذين تخرجوا في البرنامج في مختلف حقول الكتابة، حيث الرواية والقصة والترجمة والكتابة للأطفال واليافعين، والأمل معقود باتجاه فنون كتابية أخرى؛ ليكتمل المشهد الإبداعي مع جيل موهوب يتقن فنون الكتابة الاحترافية، حسب منهج علمي ولغوي، وتقنية صحيحة، جيل تدرَّب على أيدي أساتذة أكفاء، نقلوا له المعارف والخبرات والمهارات اللازمة؛ لتكتمل دورة المشهد الاحترافي، والهدف الكبير أن نصل بهم إلى العالمية.

لقد أعطى برنامج دبي الدولي للكتابة للشباب الموهوبين إبداعيّاً، جرعةً من الأمل ليحقّقوا حلمهم، ولم نكتفِ بتدريب الموهوبين داخل الإمارات؛ بل انطلقنا عربيّاً عبر ورشٍ تدريبيَّةٍ في تونس ومصر والكويت، متجاوزين الحدود الجغرافية للوصول إلى الشَّباب العربي في بلدانهم، وإطلاق ورشات تدريبية مع مدربين محليين مشهود لهم بالكفاءة؛ لتصبحَ الفائدةُ من البرنامج أوسعَ وأشمل.

لقد كان هدف البرنامج منذ البداية، دعم المؤلفين والوصول بهم إلى العالمية، في شتَّى مجالات المعرفة من العلوم والبحوث إلى الأدب، وقد لمسنا نتائج طيبة خلال الورشات الماضية؛ فقد فازت كتب من البرنامج بجوائز مرموقة، وبات يُنْظَرُ إلى هذه التجربة بكثير من التقدير والاحترام داخل الإمارات وخارجها. وها نحن اليوم ندفع بالكاتب يوسف الجيران، إلى الساحة الثقافية، عبر روايته هذه التي يخوض فيها بحر الأمنيات بشخوص منحوتة بدقة، وقد أنجزها خلال البرنامج، ونحن على يقينٍ بأنها ستكونُ موضعَ تقديرٍ وترحيبٍ من القرَّاء والنقَّاد والمهتمِّين.

جمال بن حويرب

المدير التنفيذي

لمؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة

الكويت، أول أبريل، 2008

- 1 -

يمضي يومه الدراسي مملاً وطويلاً، دون أن ينتهي تردُّد سؤال معلمة الرياضيات في باله:

«كم عدد الأشياء التي يمكننا أن نقسمها على اثنين؟».

يكسر قلمه الرصاص، ولوح الكاكاو، ليشاركهما صديقه، ثم يُخرج من جيبه ديناراً؛ ليشتريا بوظة من الرجل الذي يبيعها أمام باب المدرسة. يصل إلى البيت، يهرع إلى الصالة؛ حيث يقرأ والده الجريدة. يحاول تهجئة العناوين المكتوبة على ظهر الجريدة، يستوقفه رسم كاريكاتيري، ليقول:

«بابا، لديَّ سؤال».

يهز والده رأسه باستهجان؛ بينما يقلِّب الجريدة. يتمعن الطفل في رسم كاريكاتيري على ظهر الجريدة، لرجلين يختلفان بطول اللحى، كل منهما يقف على طرف من قارب مكسور من المنتصف:

«بابا».

«اسأل، فأسئلتك لا تنتهي يا حمد».

يشير بيده إلى القارب، ويقول:

«هل يقبل القسمة على اثنين؟».

«ما هو؟».

«القارب».

يظن أنه لم يسمعه. يبقى الأب صامتاً لثوانٍ؛ قبل أن يقول ممتعضاً:

«لا تؤذني، اذهب واسأل أمك».

يلتفت إلى أمه التي تحضِّر سفرة الطعام على الأرض بجانبهما، ولا تعيرهما اهتماماً. يصعد إلى غرفة أخته «فجر»، حيث تنعزل فيها وتقضي معظم وقتها. يدفع «حمد» الباب، فتوقِف «فجر» المذياع الذي كان يصدر أغاني صاخبة، وتزجره لعدم استئذانه قبل الدخول. يقاطعها ليستفسر عن كيفية انقسام الأشياء على اثنين؟

تمسك ورقة أمامها، وتمزِّقها إلى نصفين قائلة:

«هكذا. إذا لم تطرُق الباب مرة أخرى».

لم يربكه الموقف، فأعاد سؤاله أكثر جدية:

«هل يمكن للإنسان أن يعيش بمكانين في الوقت ذاته؟».

«من أين تأتي بأسئلتك السخيفة، ستكبر وتعرف».

تركها ودوامة السؤال تدور في رأسه بقية اليوم؛ متى سيكبر ويعرف؟

يجلس كعادته بعد الظهيرة، يشاهد برنامجه المفضل على التلفزيون للخدع البصرية. يردد المذيع: «لا تُجرِّبوا هذا في المنزل»، فيتبعه تصفيق الجمهور؛ للترحيب بدخول رجل عريض المنكبين ليعتلي المنصة. بشعر أسود منفوش، يمسك بعصا حديدية، وعلبة بلاستيكية بيضاء يشرب منها قليلاً، ثم يشعل العصا بالنار، فيدخلها في فمه، لينفخ النار، ثم يهتف الجمهور بالإنجليزية «التنين». ظل «حمد» فاغراً فاه، حتى سقط كيس الحلوى من يده.

يهرع إلى المطبخ، يبحث في الأدراج السفلية، يحاول أن يتذكر أين تضع والدته القدَّاحات، لم يجدها.. يسحب كرسياً بلاستيكياً، يصعد، ليفتِّش في الرفوف العلوية.. علبة بخور، فحم، ثم يجد أعواد كبريت، وضعها في جيبه.. تابع، ثم وجد في الرف فوق المغسلة شموعاً زرقاء طويلة، حملها ليعود إلى الصالة.

يُفرِغ الأعواد والقداحات من جيبه. يَصُفُّ الشموع أمامه على الطاولة. يحمل شمعة بيسراه، ويحاول إشعالها بعود الكبريت أولاً، لم يفلح، تململ من تكرار التجربة. يأتي بالقداحة، يشعل الشمعة الأولى، يثبِّت ساق الشمعة على الطاولة، حيث يتقاطر الشمع منها. يهُمّ بإشعال الثانية.

يصفّهما بجانب بعض، فيلاحظ أنهما غير متساويتين في الطول. يشعل الثالثة الأطول بينهما. يحاول بالشمع الذائب منها أن يقوم بإلصاق الشمعتين الأوليين لتطولا.

تميل الشمعة الثالثة على الطاولة، ويتساقط بعض من الشمع على الطاولة، وبينما هو يحاول أن يرفع الأولى، تلسعه حرارة من الشمعة الثانية، فتُفلِت من يده أرضاً.

يسمع شارة نهاية البرنامج، ينظر إلى التلفاز، ينتبه إلى أن بقعة الحرق بدأت تتسع على السجاد. صوت أمه يأتي من آخر الممر:

«حمد، انتبه، لا تجلس على الأرض، اذهب واجلس في غرفتك».

يزحف لهب النار على السجاد من الشمعتين الأخريين. بدأت تفوح رائحة نتنة، وجوانب السجاد تشتعل أيضاً. يبحث «حمد» من حوله عن أي شيء ليُخمِد به النار قبل وصول والدته. يعثر على قارورة ماء، يُفرِغها على النار، فيرتفع اللهب أكثر من الزاوية الأخرى. تنفلت منه صرخة:

«ماما».

يعود صوت أمه:

«اترك الصالة، قمت بتنظيفها بمحلول جديد وخطر».

يسعل، يشعر بحرارة في المكان، يتصبب عرقاً من شدة

حمـو الصالـة. ينتبـه لمسـند الكنبـة وقـد بـدأ يشـتعل كذلـك. يصـرخ بقـوة. السـخونة تـزداد. يبـدأ ينـادي:

«ماما، بابا، فجر».

يَسـعَل، يحـاول أن يلتقـط أنفاسـه؛ بينمـا يكتمهـا الدخـان. يهـرع للخـروج مـن الصالـة، فيمنعـه خيـط النـار أمامـه، والـذي بـدأ يعلـو أكثـر فأكثـر. عـاد يصـرخ:

«ماما!».

مسـتطيل اللهـب مـن السـجادة بـدأ يزحـف لـكل مـا حولـه، ينتبـه إلـى صـوت «فجـر» تسـتغيث. يحـاول أن يناديهـا. يتتبـع الصـوت، بينمـا يمنعـه حمـو النـار مـن رؤيـة «فجـر»، يشـيح بوجهـه ليسـعل.

يـرى خيـال يـد ممـدودة مـن خلـف النـار، لـم يتعـرف إليهـا، فيمـد يـده؛ حيـث صـار لسـان النـار يلتهـم كل مـا يحـاول الوصـول إليـه.

***

«فجـر» تراقـب النـار، تخـرج مـن الصالـة وهـي تسـتغيث بأبويهـا. لقـد مـرّت بجانـب الصالـة؛ لأن والدهـا «طـلال» كان يناديهـا لمناقشـة مـا حـدث لهـا أخيـراً. فمنـذ البارحـة و«حيـاة» تحـاول تهدئـة «فجـر»، تصـف أباهـا بأحسـن الألقـاب، تجمِّـل صورتـه كأب يخـاف علـى ابنتـه، وليـس أكثـر مـن ذلـك. واليـوم

تغيبت عن المدرسة لأول مرة، دون حجة أو كذبة منها. كانت ترغب لو مرَّ هذا اليوم بالذات كسائر الأيام التي تذهب فيها إلى المدرسة صباحاً. أبوها كذلك لم يذهب إلى عمله، أقلَّ «حمد» إلى مدرسته وعاد، لم يكن واثقاً من أن «حياة» ستقفل جميع الأبواب والمخارج.

كانت «فجر» وحيدة في المنزل هذا الصباح. حاولت أن تفتح أحد الأبواب، لعل «طلال» نسيَ إقفال أحدها، لكنه لم ينسَ. عبثت بشعرها وفرقته بالمقص، جرحت معصمها به أيضاً. تلذذت بالألم مرات عدة، ثم شعرت بالدوار، توقفت عن جرح معصمها. لعنت هذا الألم الذي تتلذذ به في كل مرة تتفنن فيها؛ لتجد طرقاً جديدة تدخلها بمتاهاته، غير أنه يخذلها عندما تريد أن تقاطعه وتغفو في وجعه، ليبقي الألم إجابته مبهمة: مَنْ فيهما يتلذذ بالآخر؟

ظلت «فجر» في غرفتها؛ تستعيد ما حصل معها في اليومين الماضيين، حيث كان يصادف حفل يوم ميلادها، الذي حضَّرته «حياة» لها. لم تكترث للكعك والهدايا التي قدموها. رسمت ابتسامة كاذبة، وعادت إلى غرفتها. دخل عليها أخوها «حمد» فجأة، حذرته من عدم طرق الباب. سألها أن تجيب الهاتف، أحدهم طلبها بالاسم. تعرفت إلى هوية المتصل، فاتفقا على أنهما سوف يتقابلان ليلتها عند باب الثانوية التي تدرس فيها. لوهلة شعرت بأن صوت

ندائها قد وصل أبواب السماء المُشْرَعة دائماً، كما تردد عليها «حياة»، وتتجاهلها.

جهَّزت ليلتها حقيبة صغيرة، حزمت بها حاجاتها الأساسية من ملابس، سراويل، ملابس داخلية، فوط نسائية. أخذت بعض النقود من التي يجمعها «حمد» في حصالته. انتظرت ذهاب أبيها إلى الديوانية، وبينما تقرأ «حياة» قصة ما قبل النوم لـ«حمد» في غرفته. طوت سعادتها والمقص في جيبها، وخرجت من الباب الخلفي.

وصلت مرتبكة إلى المكان الذي هربت منه مرات عدة. تسارع لهاثها، بعد أن كانت تركض هرباً من سيارة شبان. ترددت مراراً في أن تعود إلى البيت، ارتعبت، حاولت أن تنكمش داخل قميصها الفضفاض، وهرعت إلى القرب من المدرسة. تفحصت سور المدرسة أمامها، ظلام دامس يطغى على المكان من حولها.

تسمرت أمام الحائط الذي تحفظ تفاصيله من الداخل والخارج، تعرف كيف تقفز من فوقه لتهرب من الحصص الدراسية. تحاول أن تتسلق الحائط. تعثَّرت بملابسها. تنتبه إلى ظل رجل يأتي من بعيد، عضت على طرف القميص، ثم قاومت وصعدت:

«انزلي يا بنت».

اقترب الرجل أكثر وهو يصرخ بها. ألقت بجسدها لأعلى السور، تمسَّكت بأنفاسها. مدَّ الرجل يده ليشدها إلى الأسفل. التقت نظراتهما ببعض. زجرها:

«أنتِ مرة أخرى!».

نهضت لتنفض ملابسها، ونظرت إليه بتوتر. حاول هو أن يقرأ خجلها، خوفها، فقالت:

«اسمع مني يا أبا شريف، اسمعني أرجوك».

«أرجوكِ أنتِ.. أنا لا أبحث عن المشاكل، وعملي كحارس يقتضي أن أبلغ عنك هذه المرة».

اغرورقت عينا «فجر»، واستطرد هو موضحاً:

«أنسيتِ التعهد الأخير، الذي ألزمتني به المديرة؟».

أقسمت له بأنه هذه المرة سيأتي أحد لاصطحابها؛ وهو ليس كهروبها الأخير؛ الذي كاد أن يسبب له المتاعب؛ لولا تدخُّل مديرة المدرسة.

«هذه المرة سيأتي أحد لاصطحابي، أنا مثل ابنتك».

ضرب كفيه ساخراً:

«الجملة المعتادة».

أحضر أبو شريف سحَّارة بلاستيكية حمراء؛ لتجلس «فجر». ثم سألها بحنق عن سبب عودتها إلى السور الذي

تهرب منه دائماً. أصر على أن يعرف القصة بتفاصيلها. تنهدت، ثم حررت كل ما في قلبها. لم يناقشها بشيء، كان يُنصت لها بينما ينظر إلى الساعة، وتردد مرات عدة أن يغافلها ويذهب ليتصل بالشرطة، شيء ما في داخله لم يُعِنه على ذلك، تذكَّر بناته؛ بينما كانت تتحدث، ثم ختمت حديثها:

«هذه المرة لديَّ أمل بالعودة يا أبا شريف».

حوقل، ثم علَّق:

«عجبي لهذه الحياة، توقفنا مترددين أمام أكثر الأماكن التي نهرب منها دائماً، وتعاقبنا على ذلك بلعنة عودتنا إليها يوماً ما».

أومأت موافقة على كلامه.

أخرج أبو شريف من جيب ثوبه منديلاً لتمسح دموعها. التفت إلى الساعة المعلقة، الوقت صار متأخراً، سألها عن التوقيت المتفق عليه، انتبه أنه مرَّ زمن.. ازداد قلقه، وأشار لها مرات عدة إلى وجود هاتف في غرفته إذا ما عدلت عن رأيها.

قاطعهما صوت أذان الفجر. جاب أبو شريف المكان، مقاوماً رغبته في طردها أو الاتصال بالشرطة، أو مديرة المدرسة للتصرُّف بالأمر. كلما نظرت «فجر» إلى الساعة، يصير الوقت أكثر وحشة. اقترب موعد بداية الدوام المدرسي. استعاذت من نفسها، من خيبتها. كلما مرَّ صوت سيارة في

الخارج، هرعت؛ تتمنى أنه وصل. تمضي السيارات، وما وصل أحد إليها، وظلت تقضم أظفارها، وتنظر منكسرة في عيني «أبو شريف».

فجأة، طَرْق قوي يهز الباب. ذُعراً قفزت «فجر» من مكانها. هرع أبو شريف ليفتح الباب مواراباً، يأتيه صوت رجل غاضب؛ تعرَّف إلى نبرة صوته. حاول أبو شريف تهدئته. يدخل أبوها «طلال» قابضاً أبا شريف من ياقته. نظر إليها نظرة، تمنَّت لو أن الأرض ابتلعتها قبل وصوله. قذف الحارس إلى الخارج. اقترب منها يتصبب عرقاً، رفع كفه وقبضها من كتفها بقوة؛ يجرها إلى الخارج بعنف، صرخ بالحارس:

«ستنال عقابك».

عادا إلى البيت فدفع «فجر»، رمى بها صوب حضن «حياة» التي كانت تنتظرهما بجزعها عند الباب:

«وجدتُها الكلبة».

ويغلي بغضبه؛ صعد إلى غرفته.

تفحَّصت «حياة» وجه «فجر»، كانت آثار أصابع والدها على خدها المُحْمَرّ. اندفعت «فجر» إلى حضن أمها تنتفض ببكائها.

صلَّت «حياة» الليل كله تدعو لابنتها، وألّا يبقى جنونها بهروبها من البيت. ثم مرَّ صبح اليوم طويلاً، لم يكلِّم «طلال» «فجر» بشيء، لم ينهها عن شيء أو يغضب. سوى أنه منعها

مـن الذهـاب للمدرسـة. صمـت مرعـب، تتمنـى لـو أنـه يتكلـم، يصيـح بهـا، أو يشـير إلـى أي عقـاب سـيؤدي بهـا.. لـم يفعـل.

بينمـا كانـت «فجـر» تسـتعيد مشـهد الأمـس بتفاصيلـه. وتعـدّ بيـوت الحـي المجـاورة، تذكـرت قلـق «أبـو شـريف»، وخيبتهـا فـي عـدم وصـول أحـد، مـاذا لـو أخبـر الحـارس مديرة المدرسـة أو إحـدى المعلمـات، أو ينتشـر الخبـر بيـن زميلاتهـا الطالبـات؟

ظلـت تتخيـل الحـوار الـذي سـيدور مـع أبيهـا، محاولـة أن تسـتعد بإجاباتهـا. قاطعهـا نـداؤه لهـا، مـرت بالقـرب مـن الصالـة، شـكَّت برائحـة حـرق تمـلأ المـكان. نهضـت مـن مكانهـا.. أسـرعت تركـض نازلـة، وإذا بهـا تشـاهد الصالـة وقـد ملأتهـا النـار، وصـوت «حمـد» وهـو يصـرخ بـكلام غيـر مفهـوم. ولا تـدري كيـف ارتفـع صوتهـا المجنـون بالصـراخ:

«حريـق!».

- 2 -

يعـج مستشـفى العـدان بالنـاس، كـراسٍ متحركـة؛ يقاطعهمـا ولـدان بأرجـل مكسـورة، مُسـنة تئـن بآخـر الممـر، رجـل يصـرخ علـى موظـف الاسـتقبال؛ لأنـه تأخـر فـي دوره. يصـل «طـلال» مـع «حمـد» إلـى المستشـفى فـي سـيارة الإسـعاف. ثـم لحقـت بهمـا «حيـاة» و«فجـر»، تقاطـع «حيـاة» الموظـف وتسـأله: حمـد طـلال النهَّـاب. يجيـب: قسـم الحـوادث، بآخـر الممـر يميـن.

يحوم طبيب وممرضتان حول السرير الذي يرقد عليه «حمد»، مُغمَى عليه بملامح مختفية، لفائف بيضاء تغطي معظم جسده. تفترش «حياة» الكرسي عن يمينه، تهتز في مكانها. «طلال» يذهب ويعود بالأوراق، ينظر إلى «فجر» غاضباً؛ لاصطحاب «حياة» لها؛ رغم أنه منعها من ذلك. يُلِحّ «طلال» على الطبيب ليتم نقله إلى مركز سعود البابطين للحروق وجراحة التجميل. يصرخ بهم:

«انقلوه الآن».

«عدد سيارات الإسعاف غير كافٍ لدينا».

«أنا آخذه إلى المركز».

تحاول «حياة» أن تهدئ من روعه، احمرار وجهه وغضبه يدلان على إصراره أن يطير بـ«حمد» فعلاً، لكن بعد أن يقلب المستشفى رأساً على عقب، يكرر على الطبيب:

«أنت لا تعرف عملك!».

يأمر «طلال» الطبيب بنزع جهاز القياس، يدفع الممرضة التي تحاول منعه. يقف الطبيب بينه وبين «حمد»، يحذِّر «طلال» من تبعات هذا القرار:

«إن سمحت لك بذلك، سوف تتحمل أنت النتائج».

«دكتور، أنْهِ الموضوع، لا طاقة لي بالمجادلة، تأخيركم سيسبب نتائج مضاعفة أيضاً، أليس كذلك؟».

بدا على الطبيب ازدياد قلقه، لأن التأخير فعلاً ليس في مصلحة الولد. ينظر إليه «طلال» حانقاً، ينهر «حياة» عندما قالت سننتظر الإسعاف. يتفهم تخوُّف الطبيب من أي قرار سيتخذه، فيصرخ به:

«على مسؤوليتي».

يتقدم الطبيب والممرضتان ليعينوه على رفع «حمد». «فجر» تنظر إلى أبيها مندهشة، لأول مرة ترى اهتمامه بهذه الصورة، وهو الذي يوبِّخ «حمد» في كل مرة يشتكي من شيء: «كن رجلاً». تمنت لو أنه طار بها يوماً، يصرخ بوجه الجميع كي ينقذها. لو أنه يشعر بأنها ستنفذ بأي لحظة من جناحه، أو يده التي يقبض عليها بشدة، ظانّاً أنه يحوطها بها، وهي تحفظ فراغات يديه.

«طلال» يحمل «حمد» بحذر، يدفع «فجر» جانباً قبل أن يخرج بقوة؛ صابّاً جام غضبه عليها. تدعوها «حياة» للإتيان بالملف من الممرضة واللحاق بها. يندمل الجرح، تتجمع العائلة، تتداخل القرارات. يكرر الطبيب من خلفهم:

«على مسؤوليتكم!».

تصل العائلة إلى مركز سعود البابطين للحروق وجراحة التجميل، الساعة تشير إلى العاشرة مساءً. متجنبين النظر إلى بعض، «فجر» تسرح في الخارج، «طلال» يتابع قناة إخبارية،

«حيـاة» تسـحب كتيبـات الأذكار أسـفل منضـدة التلفـاز، وتتلـو بصـوت مسـموع.

يخـرج طبيـب مـن الغرفـة، يهـرع «طلال» إليـه. «أدخلنـاه وحدة العنايـة المركـزة»؛ الطبيـب يقـول، شـاب صغيـر يبـدو أنـه بأواخـر العشـرينيات، بذلـة كحليـة، ومعطـف أبيـض، كان يرتجـف وهـو يلقـي الخبـر، عينـاه متورمتـان خلـف نظاراتـه المـدورة. تنهـض «حيـاة» بصعوبـة متجهـة نحـو البـاب، تسـأل الطبيـب:

«أريد الاطمئنان عليه».

يمـد الطبيـب ذراعـه نحـو البـاب، مانعـاً «حيـاة» مـن الاقتـراب. محـاولات عـدة منـه لإقناعهـا بضـرورة عـدم تواصـل أي أحـد معـه فـي هـذه الأثنـاء. وعدهـا بأنهـا سـتراه قريبـاً، ومضـى.

***

يسـتيقظ «حمـد» صبـاح اليـوم التالـي في غرفـة العنايـة المركزة. صـوت «فجـر» وهـي تسـتغيث كان آخـر مـا يتذكـره قبـل شـعوره بأنـه يسـتفيق مـن نـوم ثقيـل. يسـمع طنيـن أجهـزة وخشخشـة أدوات حـادة، يتقلـب لجانبـه الأيسـر متتبعـاً الصـوت، يحـاول أن يسـتجمع قـواه ليفتـح عينيـه، لـم يفلـح. الممرضـة بالغرفـة تأمـره:

«حاول بعينك اليمنى!».

دوائـر بيضـاء، غشـاوة ورديـة، جفنـاه مطبقـان كأنهمـا التحمـا. بتثاقـل يفتـح عينـه اليمنـى، بجانبـه ممرضـة مكتنـزة تتفحـص

الأجهزة، لوهلة آلمه البياض الذي تلبسه. تبتسم له، تتحمد له بالسلامة، وتضيف أن الطبيب سيزوره لاحقاً. تساءل: أي طبيب؟ من تكون؟ دارت في نفسه ملايين الأسئلة التي عجز أن ينطق بها، يدوخ من فرط التفكير، وينسحب إلى دوامة النوم ثانية.

صوت متقطع، جمل غير مترابطة، معوذات، خدر في كتفه اليمنى. يدخل ويخرج في إغماءات متفاوتة، وأخيراً همْس يعرفه جيداً، بجمل مترابطة، صوت أمه وهي تتلو القرآن.

خطوات تقترب منه، تنحنح أحد ما، يعطي أوامر بفحوصات وأشياء لم يفهمها. اقتربت خطواته أكثر، وسأله:

«صاحي؟».

يهز «حمد» رأسه، يأمره الصوت بأن يفتح يمناه لو كان يستطيع. يراه على مقربة من وجهه، مرتدياً نظارات بإطار دائري، محاولاً أن يشد الشاش فوق رأسه. يبدأ معه بإطلاق عبارات تشجيعية، وأخيراً يُعرِّف نفسه:

«الدكتور «سيف»، أو صديقك «سيف»».

يحار «حمد» صامتاً. يتابع الطبيب:

«ما آخر شيء تذكره؟».

تذكر البرنامج، التنين، حلقة النار، هتاف الجمهور. تسري كهرباء في قدمه. قطع حلوى، أعواد الثقاب، صوت أمه

و«فجر». كان الطبيب يحاول أن يشرح له ما حدث، يُخرِج بولاً لا إرادياً، يشعر بالألم يمتد من أخمص قدميه إلى أعلى رأسه، كأنه يحترق من جديد.

يشير له الطبيب «سيف» إلى الطرف الثاني من الغرفة. مستطيل زجاجي تطل من خلفه أمه «حياة»، تتلثم مَلْفع الدانتيل، تمسك بسماعة، يصله صوتها وهي تبسمل وتهلهل:

«هل تراني يا أمي؟ هزّ رأسك حبيبي».

تُقبِّل «حياة» الزجاج، تخر باكية، يمسك بها «طلال»، ثم يغلق دكتور «سيف» الستار عنهما.

تجتمع العائلة خلف هذا المستطيل الزجاجي، كل ما سمح لهم به الطبيب؛ أن يلقوا نظرة من خلاله على «حمد». ممدداً على السرير بشاش أبيض، أسلاك ممتدة إلى جسده، أنبوب تنفس صناعي موصل إلى فمه. غرفة مربعة صفراء، لها باب حديدي ضخم، تمنت «حياة» لو تكسره وتدخل. كلما يخرج الطبيب من الغرفة ينكسر من نظرات الرجاء في عيني «حياة». يحاول أن يتجنب نظراتها، ثم ينزل إلى الكافتيريا.

يجد «فجر» تطلب من الكافتيريا عند مدخل المركز، ألقى السلام. لم تنتبه من يكون. ثم استدركت، فبدأت تجمع شعرها الذي أهملت ترتيبه صباحاً. يواسيها:

«خطاكم السوء».

تشكره. ثم يمد يده بالنقود من جيبه ليدفع ثمن العصير الذي طلبته، ويطلب شاياً له. يدعوها إلى الجلوس معه على الطاولة، ويعرِّف بنفسه:

«دكتور سيف».

«فجر».

لا تدري لِمَ بدا عليها التوتر.. هادئاً بدأ يتحدث عن حياته الجامعية، تم نقله حديثاً إلى هذا المركز، أكثر ما يتعبه رؤية الأطفال المحروقين، وتفاصيل لا شأن لها بها. لم تركز بكل ما تحدَّث فيه، قاطعته:

«كيف حال صحة «حمد»؟».

أخوها الذي تغار من معاملة أبيها له، من إيمانه بقدراته، وأن يشبهه، ويحمل اسم النّهاب.. يصغرها بثماني سنوات، جاء فرحة للعائلة، لـ«حياة» التي التصقت بـ«فجر» منذ كانت في الثالثة، فشعرت أنها نُحِّيت جانباً من قلبها في السابعة، بعد ولادة «حمد». كانت تحاول ألَّا تُشعِرها بذلك، لكن محاولاتها تفضحها، سعادتها بلقب أم «حمد» تكشفها. تظنه ثرثاراً، مليئاً بالأسئلة الغبية «راديو» كما تدعوه ويكره. شجارهما على قنوات التلفاز، مسرحيات العيد، اختيار المطعم لعشاء الخميس. سباقها إلى حصالته التي يجمع بها النقود، ويتفقدها كل ليلة؛ حتى يتأكد أنه سيشتري كل ما

يحلو له من محل الألعاب. خيباته، لأنها تعرف كيف تقنعه بجمعها منه، لتنفقها على الماكياج. كانت تظن تفوقها عليه بكل شيء. إلا أنه دائماً يفوز بقلب أبيها، وتكره!

تسأل عن «حمد» اليوم، لأنها تخاف فَقْدَ كل ما سبق، ألَّا تجد من تنفس غضب أبيها منها عليه. وبذات الوقت؛ كانت تعني السؤال. هيئته ممدداً أفزعتها.

«سيكون بخير»؛ طمأنها الطبيب.

لاحظ الدكتور «سيف» جروحاً في معصمها الأيسر. تدارك نظراته قبل أن تلاحظها، ويسألها عن عمرها، دراستها، طموحها، أسلوب حياتها.. بدأت تجيبه، وترددت كثيراً بالأخيرة.

تعود «فجر» إلى حيث أخيها، يراقب المربع الأصفر الذي يؤويه، كلما فتح يمناه. صوت أمه «حياة» يخرج من سماعة عن شماله، أشارت له عنها الممرضة، لكنه لا يستطيع أن يراها. عاجزاً عن الحديث، تشتاق «حياة» لصوته، ولا تسمع منه إلا أنينه الذي يمنع عنه النوم. يحاول أن يرفع يده لينزع الغطاء عن وجهه، فتخونه.

- 3 -

يتردد الطبيب «سيف» على «حمد»، يسأله عن أحواله، يطلبه الإجابة بإبهامه الأيمن. فيرفعه بصعوبة، ويردد «سيف»:

«أنت بَطل».

يراجع الطبيب والممرضة من ملف، يطلب منها أن تغيِّر الشاش يومياً؛ بدءاً من صباح الغد. ثم خرج فوجد «حياة» ملتصقة بالنافذة الزجاجية، تطل من خلفها. مُغمِضة عينيها، تحاول ألا تصدِّق ما تراه. تضم يديها، تقرأ فيهما «بسم الله أرقيك...»، تنفث. ترتجف، تمرر يديها فوق جسد «حمد» كله، من خلف الزجاج. تلحظ وجود «سيف»، فتطلب نظراتها منه الدخول. يُحرَج الطبيب منها. ثم يطلب منها و«طلال» اللحاق به إلى مكتبه.

يفتح ملفاً، ليشرح حالة ابنهما الصحية:

«حرْق عميق، من الدرجة الثالثة، أثَّر في ما يقرب من الأربعين في المئة من جسده».

ما عنت تلك التفاصيل شيئاً لـ«حياة»:

«متى أراه؟».

يجيبها بأنه سوف ينتقل إلى الغرفة العمومية خلال أسبوعين، إذا استجاب للعلاج بشكل أسرع. تنظر إلى «طلال»؛ راجية منه أن يقوم ويقلب المكتب على «سيف»، ويركض بها إلى غرفة «حمد». تقبِّل رأسه، كتفه، تقرأ على جسده، وتنفث المعوذات في أذنه. لكن «طلال» يُصِرّ:

«هو أدرى بعمله».

يتابع «سيف» شرح نوع عمليات الترقيع التي سيبدؤون بها فور نقله إلى الغرفة العمومية.

انتهينا من الجهاز التنفسي، وسنواصل بقية الأعضاء فور نقله إلى الغرفة العمومية، والاستمرار بالإجراءات التجميلية بعد خروجه من المركز.

يصمت لوهلة؛ ثم يضيف:

«اليوم سنكشف وجهه لتغيير الشاش، ضرورة لكشف الجرح ودهانه».

بينما كان يشرح الطبيب حديثه عن تغيير ملامحه، وضرورة أن يتحكما بردة فعلهما، تخرج «حياة» مستاءة.

يدخل الطبيب «سيف» والممرضات إلى غرفة «حمد»، حيث يراقب المكان من حوله، محاولاً أن يستوعب وضع السقف الذي لا يشبه غرفته في البيت، الذي صار بعيداً عنه منذ زمن.

«تسمح لنا بفتح الشاش؟»؛ يستأذنه الطبيب.

يرفع إبهامه الأيمن؛ إشارتهما التي اتفقا عليها. ثم تبدأ الممرضة الأولى بإسناد كتفه، يحاول رفعها كلما فتحت الممرضة الأخرى طبقة من الشاش.. يتحدث «سيف» معه؛ بينما تقوم الممرضة الأخرى بانتزاع الشاش.

يحاول «حمد» أن يفتح عينه اليسرى، فلم يفلح. دفع يد

الممرضة وتلمس عينه، طبقة سميكة من جفنه يحاول أن يدعكها. يمسح الطبيب «سيف» فوق رأسه؛ يطمئنه:

«قريباً، سترى بها».

تنهّد وكرّر في سِرِّه: «يا رب، يا رب».

تنظر «حياة» من خلف النافذة متلهفة، تحاول أن تبحث في الغرفة عن ابنها الذي سيتم الكشف عن وجهه.. كذَّبت عينيها أن يكون وجهه الذي بدا عليه الجلد ناتئاً، خده غائراً، والجلد طافح بطبقات، شفته السفلية متدلية ناحية اليسار؛ كما لو أنها انفصلت عن وجهه. تتفحص كل جسده، تحملق في رأسه، بقايا من شعر أجعد، تُمنِّي نفسها فتقول:

«لا يمكن أن يكون، ابني شعره ناعماً».

تهرع «فجر» إلى الحمام؛ تستفرغ كل ما في معدتها، بعد أن رأت بعضاً من الجلد يتقطع في يد الطبيب «سيف»، وهو يحاول أن يمسح على وجه «حمد» بدهان السمسم (ميبو).

يلتفت «حمد» ناحية والديه. لم يتعرف إليهما أيضاً. والده يربت فوق كتف والدته، ماسحاً بعينيه الغرفة؛ كأنه يبحث عن أحد غير موجود.. تساءل الولد:

«مَنْ أصابه الحَرْق فعلاً؟».

أواخر أبريل

- 1 -

كل شيء في بيت النّهاب صار شاحباً، طابوق الجيري تحوَّل بعضه رماداً، الباب الحديدي الأسود عاد يئن كلما دفعه الهواء، النوافذ ظلت بزجاجها المكسور، الأثاث المهترئ مُلقى في الحوش.

تسحب «فجر» غطاءها لتنزل إلى غرفة «حياة» و«طلال» في الطابق السفلي، خوفاً من رؤية الصالة العلوية بعد الحريق. يرتمي كلٌ منهم على مرتبته الإسفنجية، متعمِّدين الوقوع.

هدوء مزعج؛ يبطن في كلٍ منهم ضجيجاً من صورة «حمد» التي لا تفارق خيالاتهم. وبينما يسرح «طلال» خارج الغرفة، شعر بأنه بعيد عن البيت، قريب إلى المستشفى، تكسر «حياة» الصمت بصوت محشرج:

«طلال».. متى نرتِّب له غرفته؟

يهزم آمالها:

«ينقلونه العمومي أولاً!».

تدَّعِي «فجر» النوم، ويتعب «طلال» من التفكير، ويظل سؤال «حياة» مفتوحاً حتى الصباح.

تردد «حياة» أذكارها. «أصبحنا وأصبح الملك لله». تفتح الستارة، تنفذ الشمس إلى المكان.. «وإليه النشور». تهز أقدام «طلال» و«فجر»، «وأعوذ بك من العجز والكسل». يتأفف «طلال».. «ومن غلبة الدين وقهر الرجال». يزجر:

«لم يحِن موعد الزيارة!».

«وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجُرَهُ إلى مسلم». تستعجل «فجر» بالاستيقاظ، كيلا يتحوَّل الغضب صوبها.. «ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين». يصرخ «طلال» في «فجر»:

«علينا أن نتحدث اليوم».

«فجر» تردد سراً مع «حياة»:

«وأعوذ بك من شرِّ ما فيه وشرِّ ما بعده».

تنتقل «حياة» إلى المطبخ. تحضِّر المقلاة، ثماني بيضات، لكل واحد اثنتان. تتذكر «حمد»؛ كان يحبهما بعينين شبه مستويتين كي يفقأهما، فتكسر ستاً. تفرق صحنها عن «طلال» «أستغفر الله العظيم وأتوب إليه». تسخن الخبز، تحضر الجبن الأبيض والزيتون بصحن، أكواب الشاي،

أوراق النعناع، بصينية حديدية مستديرة، مائدة منسقة؛ كما تحب ترتيبها كل صباح.

يجتمع الثلاثة أرضاً حول السفرة، تسلِّم «حياة» جزءاً من قرص الخبز إلى «طلال»، فتسأله:

«ممكن تأجل كلامك مع «فجر»؟ نطمئن على «حمد» أولاً».

تمسح على كتف «فجر» باليد الأخرى. لم يُجِب. تقتطع من ذات القرص إلى «فجر»، وتفقأ العين بصحنها بما تبقى من الخبز. صوت «حمد» يطوف حولهم جميعاً.

يستغل «طلال» عودة «حياة» إلى المطبخ لتحضر بعض الأكل، متمنية أن يسمح لها الطبيب بإطعام ابنها.

ينظر «طلال» إلى «فجر»:

«أريد أن أسألك».

يسعل، بل يتلعثم بالسؤال. يلتقط حروفه، فيقول:

«الحارس أبو شريف».

ترتجف، فتعلو نبرته:

«هل ما أفكر به صحيح؟».

تنظر إليه مدَّعية عدم فهْم ما يرمي إليه.

«فجـر، ارحمـي الوضـع الـذي نمـر بـه، إذا حـدث شـيء لا نحتمـل انتظـار عواقبـه».

تنفي «فجـر» بشـدة أن يكـون سـبب وجودهـا فـي المدرسـة لـه علاقـة بالحـارس، يصـرخ بهـا:

«إذاً مَنْ؟».

«كنت أنتظر خالي».

تنهَّـد، وطلـب منهـا أن تذكـر الموضـوع دون كـذب. فبـدأت هـي تقـصّ عليـه منـذ أن اتصـل خالهـا ليلـة ميلادهـا، يخبرهـا أن والدتهـا تبلغهـا السـلام، وهـي مشـتاقة إليهـا جـداً، اتفقـا علـى اللقـاء عنـد بـاب المدرسـة عنـد العاشـرة مسـاءً، لكنـه لـم يصـل فـي الموعـد المتفَـق عليـه.

«طلال» يهز رأسه، يبدأ الحديث مستهزئاً:

«يـا بنيتـي، لا تشـبهين أمـك.. أمـك التـي خرجـت مـن هـذا البيـت، ليـس كمـا دخلـت إليـه، ظنـت نفسـها شـجاعة».

تذكَّرها في المكان وأردف:

«لكنهـا جبانـة، أطاعـت إحـدى صديقاتهـا، وضعـت لـي أقراصاً منوِّمـة فـي كأس المـاء، وهربـت. كانـت تسـتعد للرحيـل منـذ فتـرة، بعـد ولادتـك فـوراً يـا ابنتـي. شـعرت مثلمـا تدَّعـي بأنهـا بـدأت تكـره وجـودي حولهـا؛ وجهـي، حديثـي، وحتـى رائحـة عطـري».

سكت؛ وقد ظهر على وجهه الأسى، وأكمل:

«تدخلت العائلتان في المشكلة؛ حتى اعترفت جدتك بأن هنالك رجلاً آخر، افترقا قبل أن تتزوج بي، لكنه عاد بمباركة عائلته التي كانت ترفضها. جدتك كانت تتصل بي يومياً، ترتجي السماح.. قاومت نظرات الناس، أعرف أنهم يقولون كلما رأوني: هذا من تركته زوجته وذهبت لآخر. صرفت كل ما في جيبي لآخذ حضانتك. زوج أمك كان يصرف ما في جيبه أيضاً من دون علمها، كي تبقى الحضانة عندي. قلت لأمي تُزوِّجني، لأكسر رأس أمك مثلما فَعَلت.. كانت تضرب أمي كفيها كلما أستشف منها؛ هل وجدت لي عروساً جديدة؟ لكن كنت أعلم ماذا تُبطِن بنظراتها: من ترضى برجل بائس مع طفلة؟».

قاطع حديثهما صوت «حياة»، تأمر «فجر» أن تذكِّرها بأخذ قِدر مرقة الباميا من على الموقد. التفت «طلال» ناحية الصوت، وتابع:

«هي من وافقت، أمك «حياة»!».

اختلج حديث «طلال» حنيناً في قلبيْ الأب والبنت.. دارَى «طلال» مشاعره في استعجال «فجر» للذهاب ومساعدة «حياة».. ولم تستطع «فجر» أن تداري وقع كلماته «أمك حياة»، هرعت تحضنها بقوة.

«حياة» تستعجل «طلال» أن يستعد للذهاب إلى المستشفى:

«سنتأخر يا طلال».

فيخرج غاضباً.. لأنهم لن يتأخروا، سيقاوم «طلال» و«فجر» تكرار الموقف ذاته الذي صار بالأمس. عندما وصلوا المركز واستعاد المشهد؛ رفعت «حياة» الماعون أمام الطبيب «سيف»:

«الله يخليك يا دكتور..».

«يا حجية، «حمد» لن يستطيع المضغ».

«فقط يشرب قليلاً من المرقة، هو يحبها».

يرفض. تستغيث بـ«طلال»، فيعلّق:

«لا تعلميه بشغله».

ينهزم «سيف» من نظراتها.. ثم يتكرر الموقف في اليوم التالي، بينما تأتي «حياة» بكمية أكل مضاعفة، محاوِلة أن يسمح لها الطبيب بدخول الأكل، ترفع إناءً آخر فتقول:

«هذا لك بعد!».

- 2 -

يسرح دكتور «سيف» بساعة الحائط في غرفة انتظار مركز الكويت للصحة النفسية، يتمنى لو يعض العقرب مرة الأرقام حتى تبدأ من جديد. ينظر إلى اللوحة المعلقة على الباب: د. «مشاري خالد».. تذكَّر عندما كان اسمه معلقاً بلوحة أخرى إلى جانب لوحة قائمته، على باب كلية الطب في الجابرية

قبل ثماني سنوات. وكلما كانا يتقابلان عند الباب، يمرر «مشاري» سبابته فوق نحره.

«مجنون»؛ يقولها «سيف» في سره ويمشي.

يقاطع سَرَحانه «مشاري»:

«أهلاً بالحبيب».

يفتح ذراعيه بحماس، يعود به إلى أيام مقاعد الدراسة، يهلِّل ويرحِّب به في مكتبه. يتنهد بتعب، يفك عقدة ربطته الأرجوانية، يطلب لهما قهوة، ويسأل:

«عسى ما رجعت جنيت؟».

يضحك الاثنان بشدة. ثم يبدأ دكتور «سيف» بسرد تفاصيل مريضه «حمد».. عن رغبته بمساعدة هذا الطفل أن يتهيأ لرؤية هيئته الجديدة.

الطفولة، أثارت ذكريات «مشاري» و«سيف».. لطالما تشاجرا، ونسيا الخلاف في اليوم التالي. كلاهما كان مصباحاً للآخر، صداقة امتدت منذ الطفولة، وتوقفت عند أول انتخابات في الجامعة.

«هذه السنة اسمي سيكون على رأس القائمة». قال «مشاري».

ابتسم «سيف»:

«بالتوفيق».

وراح ليخبر بقية أصحابه. فأصرُّوا أن يترشح «سيف» للانتخابات أيضاً:

«والله لنجننه..».

وهتف «مشاري» بالأهازيج في نهار الخطاب المهرجاني ذاك، حين ردَّد أصحابه من بعده:

«قلب العدو، حرقنااااه.. حرقناه».

طافت على ذاكرتيهما الأيام التي جمعتهما. كيف تفرقا، ثم الآن يلتقيان؛ وكل منهما قد حقق حلمه بالطِبابة، يجمعهما طفل محترق في التاسعة من عمره. لكن يستغرب د. «مشاري» لوجود دكتور «سيف» وطلبه لمساعدة مريض، بينما تقتضي العادة أن تعيِّن إدارة المستشفى من ذاتها اختصاصياً نفسياً لأي مريض يتعرض لحالة مثيلة.

يبدأ «سيف» بسرد أول دخول لـ«حمد» إلى المركز في وقت متأخر من الليل، حيث كان يحمله أبوه «طلال»، يصفه:

«مسرعاً كالمجنون!».

حينها ترجَّى دكتور «سيف» ألَّا يُنهي عمله قبل أن يتم الكشف على ابنه. كان في داخله شيء يقول ابقَ. وتابع:

«هذه العائلة، ترغمك على أن تفعل الأشياء من تلقاء نفسك. فزع أبيه، انكسار عيني أمه، نظرات اليأس في عيني أخته، فطنة الولد.. بعد أن كشفنا عليه، أمرتُ الممرضات

بالمساعدة ونقله لوحدة العناية المشددة. خرجتُ إلى العائلة أخبرهم عن تعرض ابنهم لحرق نصفي عميق من الدرجة الثالثة، وسنمد أنبوباً للتنفس، وآخر للبول. لكنني جلست في المستشفى إلى أول الصباح حتى تستقر حالته».

يستطرد شارحاً عن حالته الصحية، الأدوية التي يستخدمها، موعد نقله إلى العمومي. إلحاح «حمد» عليه يومياً أنه يريد تفريش أسنانه، ورفْض «سيف» لذلك، يعلِّق:

«هذا الولد ذكي».

إنه يعلم بوجود أمر يحاول الجميع إخفاءه. حيث لاحظ صعوبة حديثه، حتى بعد عملية فمه الأولى، ظن مرة أن «حمد» كان يطلق صفيراً من فمه:

«هل تصدق؟ إنه كان يحاول أن يقول اسمي؛ «سيف»!».

يخبره «سيف» بمساعدة «فجر» على معرفة تاريخه النفسي، والمرضي. ثم بدأ «سيف» يصف أخت مريضه، ويأخذ حديثه منحى آخر، عن الجروح في معصمها، عن ملامحها، عن عينيها الرماديتين اللتين تحملان حزناً عميقاً ـ كما وصفهما. استوقف «مشاري» «سيف» ضاحكاً:

«هل سنعالج الولد أولاً، أم نعالجك؟».

تساءل «سيف» في ذاته أيضاً.

«حمد» صبيحة اليوم بعد أن تم نقله إلى الغرفة العمومية، بينما

حاولت الممرضة إطعامه بعود مصاص أكلاً مطحوناً ولم يستسغه. تأوه، فطلب «سيف» منها العودة لاحقاً ليأكل. جلس إلى جانب «حمد»، حاول نصحه بضرورة الأكل؛ رغم عدم تقبله الطعم، حتى يستجيب للعلاج. «حمد» لم يُعِره اهتماماً، منشغلاً بحرق جانبه الأيسر، أزاح غطاء المستشفى الأبيض، نظر إلى التجعدات جهة قلبه. أشار إلى «سيف»، حاول أن تهجئة السؤال:

«هنا مكان القلب؟».

بعدما تذكَّر معلمة العلوم تشرح عن جسم الإنسان. هزَّ «سيف» رأسه. فعاد يسأل:

ممكن أن يظهر لي قلب بدلاً عنه؟

ظل دكتور «سيف» يقنعه بأن قلبه لم يحترق، وأنه ينبض ما دام يستمع إلى جهاز التخطيط عن يساره. قاطعهما دخول «فجر» إلى غرفة «حمد»، فانتاب الشك بال «سيف»:

«هل يمكن؟».

تردد النهار كله، ثم وجد نفسه عصراً في عيادة د. «مشاري»!

- 3 -

أشعة الشمس البرتقالية تخترق النافذة في الغرفة العمومية، الستائر مرتخية حول الأَسِرَّة الأربعة، و«حمد» يتابع مواصلة الحياة في الخارج، منذ أن تم نقله إليها، بينما يلعن تقييده

بالشاش الأبيض؛ كلما حاول رفع يده ليحك عينه اليسرى، فيمنعه اللفاف حولها.

يدخل إليه الطبيبان «مشاري» و«سيف»، مرتديين معطف المختبر الأبيض، ليضيفا على عادية مشهد «حمد» أكثر تعقيداً.

أُعرِّفك إلى صديقي «حمد». يشير «سيف» إليه.

يمسح د. «مشاري» فوق كفه اليمنى:

«لقد سمعت عنك الكثير، بودي لو أتعرَّف إليك بنفسي».

يستسلم «حمد» للصداقات التي تعيد ترتيب نفسها بنفسها دون عناء، ابتداءً بالطبيب «سيف»، الممرضات، عاملات التنظيف، الأطفال المجاورين له بالغرفة العمومية.

يشعر بشيء يشير إلى الصداقة من «مشاري»؛ رغم أنه لم يجد سبباً إلى الآن يفسر الأصدقاء الجدد، فهم لا يشاركونه ذات الصف، يحملون همَّ ذات الواجبات، أو يحفظون جدول الضرب في الفسحة. لكنه عرف أنه صديق جيد كفاية، لدرجة أن أمه سعيدة بمعرفته به، ولم تحذره من رفقته.

طوال الأسبوع الذي تلا زيارة د. «مشاري» الأولى، صار يتردد كثيراً على «حمد». يساعده على الحديث، حتى وإن كان الصوت يزعجه، يجعله يصمت لوهلة، يتهجأ معه الحروف، ليتأكد «حمد» من أن هذه النبرة تخرج منه، محاولاً أن يستعيد معه سبب الحروق:

«بالتأكيد تعرف لماذا جسمك مغطى؟».

يومئ؛ لأنه لم ينسَ، يعرف الحكاية مرة أخرى، يعود إلى التبول كلما تحدث فيها أحد، لا يكترث أن يتسخ سريره، لن توبخه أمه هذه المرة، بفضل الأنبوب الذي يجمع قلقه.

لا يذكر «مشاري» تفاصيل الحادثة، بل يبدأ بسرد ميزة أن يتغير شكل الإنسان، عن الفرص التي تكون أمامه، عن أشياء صار لا يعلم لماذا يسردها، هي أكبر من أن يستوعبها طفل ابن التاسعة، لكنها أقرب لأن تكون حقيقية لوعي «حمد»، الذي يُلِحّ بأسئلته.. ولا يقنع بإجابات د. «مشاري» الجافة. فيعود يسأل «سيف» عندما يدخل للاطمئنان عليه بعد كل جلسة علاج نفسي، عن تبدُّل جلده بعد كل عملية. قال «حمد» للطبيب «مشاري» ذات مرة؛ عندما استرسل يخبره عن شكله الجديد:

«ومن قال بأني أريد شكلاً جديداً، أريد شكلي؛ أنا أحبه».

ثم أعاد «حمد» ذات الجملة للطبيب «سيف». وراح «سيف» ليذكر لـ«مشاري» ما حدث مع «حمد» بنبرة يخالطها حزن. يعلِّق «مشاري»:

لا تكن حسّاساً أكثر من اللازم يا «سيف»، الطب يحتاج إلى قوة قلب. يصر «سيف»:

«بغير الإحساس؛ كيف يقوى القلب؟».

***

توالت عمليات الترقيع على جسد «حمد»، ابتداءً بأجزاء من وجهه، فالفم فالأنف، ثم سائر الجسد المتضرر. وبعد مرور شهر من نقله إلى الغرفة العمومية، صار لزاماً على الطبيب أن يسحب أنبوب البول من جسد «حمد»، بعد أن صار مستعداً للحركة. وقبلها طلب من «مشاري» ضرورة كشف وجهه لنفسه، حتى يتمكن من الذهاب إلى الحمام ومواجهة نفسه.

ألقى «سيف» الخبر أولاً على «فجر»، كانت أول من رآه بالقرب من الغرفة. ظنَّت أن والدها «طلال» يعلم بذلك، فاجأها الطبيب:

«لا، أنتِ أول من يعرف».

ابتسمت خجلة، ثم مدت كُم القميص بعد أن انتبهت إلى أن «سيف» يتفحَّص الجرح في يدها. تداركت الأمر سريعاً، ودلفت إلى غرفة «حمد» تخبره بنفسها. سُعد «حمد» بالخبر كثيراً، وظل يتحدث عن توقه لرؤية وجهه حتى صباح الغد.

منذ الصباح الباكر؛ استعد «سيف»، يلوي ربطة عنقه، يضع نظارته الطبية، تأكَّد من وجهه في المرآة الصغيرة، وضعها في جيب معطفه. وجد «مشاري» قد سبقه إلى المركز:

«متأكد أنه صار مستعداً؟».

يومئ. يضيف «مشاري»:

«على مسؤوليتك».

يدخلان إلى الغرفة؛ حيث كان «حمد» يخبر والديه بأنه سعيدٌ جداً لرؤية وجهه. يبحث في أيادي الطبيبين عن المرآة. يتقدم «مشاري» إليه، ويبدأ يسرد له أن ما سيراه لا يعني شكله لبقية حياته، سوف يتعاونان لأن يستعيد الشكل الذي اعتاد عليه.

يبدو الحديث أكثر غرابة لـ«حمد»، عن سابق الأيام التي كان يحاول فيها «مشاري» أن يفسر له كيف سيكون له شكل مميز ونادر سيحبه، والآن يعِده بتغييره، يقاطعه:

«هل سيكون لي وجهان؟».

يتجاهل «مشاري» السؤال، ويطلب من «سيف» التقدُّم. يقف والداه من حوله، «سيف» والممرضة يكشفان اللثام عن وجهه. تجمع «حياة» يديها وتهمس:

«بسم الله الكافي، الشافي، المعافي».

ترتجف كلما انفرجت طبقة من الشاش:

«أسألك أن تشفيه، وتلطف بجسده».

ما زالت تنكر في نفسها من آخر مرة شاهدت وجهه بلا شاش. تمنت لو أن الشاش يكشف عن ابنها الذي تعرف.

يبزغ وجه «حمد» ضاحكاً، مستبشراً، مستقبلاً بكاء والدته!

يتساءل «حمد»؛ لماذا لم تبادله الابتسامة؟ أليست كلما أتاها عابساً متضايقاً من شيء، تقرص وجنتيه وتمدهما باتساع وتأمره:

«اضـحـك»؟

تدغـدغ إبطيـه وبطنـه حتـى يقهقـه. لهـا القـدرة علـى قلـب كل ضيـق يشـعر بـه إلـى براحـة جديـدة للفـرح. حتـى عندمـا كان يسـخط «طـلال» منهـا ليـلاً، باحثـاً عـن أي سـبب ليغضبهـا معـه هـي أيضـاً، كانـت تطأطـئ رأسـها، وتبتسـم. ثـم تختلـق قصـة عـن رجـل، تلبسـه صفـات لا تشـبه والـده، وتقـول إنـه كان يبحـث عـن أتفـه الأمـور ليغضـب بهـا علـى النـاس:

«هـذا يـا ولـدي، فـي الحقيقـة يغضـب مـن نفسـه». ويسـتمران بالضحـك.

يعـود ليتفحـص وجهـه فـي المـرآة، لـم يـرَ شـبح ابتسـامته التـي اسـتقبل بهـا والدتـه، تمتـم لنفسـه:

«أليست سعيدة برؤيته؟».

يعيـد البسـمة، فيمتـد الجانـب الأيمـن مـن شـفتيه، ويظـل الأيسـر متدليـاً فـي الهـواء. يغـصّ فـي صرختـه، يبتلـع صوتـه، ويرمـي المـرآة الصغيـرة أرضـاً، يرفـس برجليـه اللحـاف والهـواء.

يضـرب والـده السـبحة بيـده بقـوة، يفـرق الخـرز ويجمعـه. أختـه تطـوف الغرفـة جيئـة وذهابـاً. ثـم بتثاقـل كبيـر تنتصـب أمـه، تجـرّ أقدامهـا إليـه. تحوقـل، تمـرر يدهـا علـى يمينـه وترقيـه، تسـتعيد كل مـا منعهـا عنـه الزجـاج، يهتـز جسـدها؛ بينمـا يرتعـش «حمـد» فـي مكانـه.

استمر «طلال» يلجم السبحة على طرف الكرسي، يناجي السماء، يدعو الله لو يستطيع حقاً أن يحمل ابنه، ويَنبت له جناحان يطير بهما إليه..

- 4 -

تلازم «حياة» كرسي المستشفى بجانب سرير «حمد». تتحمل آلام ظهرها، كلما تحاول استيعاب المشاعر المتناقضة التي تطرأ عليه يومياً. يغضب، فتحزن. يحزن، فتقلق. يقاوم محاولاتها لإطعامه، فتنزعج من استجابته للأكل بمساعدة الممرضة. يدس وجهه تحت اللحاف كلما دخلت الغرفة، فتتلصص من خلف الستارة على روحه التي تشتاق.

بينما تتأمله نائماً، تستذكره عندما كان طفلاً رضيعاً يقترب إلى صدرها ليرتوي، تهمس المعوذات في أذنه. سعيدة بالطفل، بعد محاولات يائسة للإنجاب.. وقبل ذلك عندما أخبرتها والدتها:

«حياة، سيأتي أحدهم لخطبتك، تزيَّني وانتقِ كلامك».

لم تفلح من قبلها أية محاولة زواج ترتبه لها والدتها. كلما أتى أحدهم إلى البيت، وجلس معها، لا يجد شيئاً ما يلفت النظر إليها. تزجرها والدتها على عدم وضع مساحيق تخفي تجاعيد جبهتها، والسواد الذي تحت جفنيها، أردفت:

«حسِّني من مظهرك يا ابنتي، والله كأنكِ بعمري!».

ثم أضافت:

«اسمه طلال النّهاب، علَّه يرضى بك».

قالت والدتها بنبرة موافقة. ثم أضافت:

«ولديه بنت».

ما استطاعت «حياة» حينها أن تعترض على الأمر الأخير. ولما حان موعد الخطبة، لم يكن «طلال» مبالياً لمظهرها، ولم يتحدثا طويلاً، شكَّت والدة «حياة» أنه سيتم الرفض، لكنه أتى الزواج سريعاً؛ مخالفاً التوقعات، رغم عدم استمالة أي من الطرفين لبعضيهما.

استعرضت «حياة» أمام صديقاتها موافقة رجل من «عائلة النّهاب» على الزواج بها، مدَّعية إعجابهما ببعض. وما لبثت أن دخلت إلى بيت النّهاب، لم يكن كما توقعت. بيت متواضع، بتصميم قديم، قرميد أصفر، وطابقان قصيران. لاحظت عليه بعض الترميمات الجديدة في الداخل، عندما استقبلتها ابنة زوجها ذات الخمسة أعوام، تتابع التلفاز في الصالة.

«هذه ابنتي «فجر»».

بأسلوب جاف، خالٍ من حماس اللقاء الأول، عرَّف «طلال» زوجته الجديدة «حياة»، بابنته التي ما زالت لا تعرف عن مصير أمها شيئاً. استغربت «فجر» الصغيرة دخول امرأة، قرر والدها بتعريف جامد:

«وهذه أمك الجديدة».

ثم عادت «فجر» تتابع التلفاز.

حاولت «حياة» أن تعيد ترتيب الأحداث التي بدأت تتخذ مجراها عكس ما طمحت إليه. اقتربت من «فجر» لتبدِّد وحشتها في المنزل، فتدنو إليها الأخرى لتسألها:

«أين أمي؟».

فتفتح «حياة» ذراعيها:

«أنا مثل أمك».

تقترب منها «فجر»، تعبس ناظرة في وجهها، تضرب بطنها وتفر.

تضايقت «حياة» من أن تكون هذه تجربتها الأولى مع الأطفال، شعرت بالضيق؛ لأنها لم تحسن التصرف مع ابنة زوجها، ولم تشتكِ إلى «طلال» من ذلك يوماً. ظلت «حياة» تحاول الاقتراب من «فجر»، من خلال وجودها حتى في اجتماعات أولياء الأمور بالمدرسة، كانت «فجر» تتقدَّم «حياة» لتخبر معلماتها:

«زوجة أبي، قولوا لها إنني ذكية، وإلا ستضربني في المنزل!».

يفعلون ذلك من أمامها، ويخبرون من خلفها العكس. لأن «حياة» تعرف أغلب المعلمات، لاحتكاكها بهن طوال فترة

عملها كمعلِّمة اقتصاد منزلي، وبعد كثرة مشاكل «فجر» في المدرسة، حاول «طلال» نقلها بعد عامين إلى المدرسة التي تدرس بها «حياة».. وهذا ما فاقم المشاكل ولم يحلها.

رغم كل محاولات «فجر» أن تعود إلى أحضان والدتها، أو قد ينفصل أبوها عن الزوجة الجديدة، فشلت بكل ما استطاعت فعله. لكن بعد حمل «حياة» بـ«حمد»، بدأت تشعر «فجر» بالغيرة؛ لانشغال الأبوين بالطفل الجديد، وبمجرد معرفتهما بأن الجنين ذكر، ظهر من «طلال» بعض تصرفات توحي بالتقرب إلى «حياة»، كأن شيئاً ما من المودة في داخله نشأ تجاهها؛ حفاظاً على مَنْ سيحمل اسمه من بعده.

تكبُر «فجر» ويكبُر الألم معها بتأكيد غياب والدتها. أيام تجرّ أياماً، وشهور «حمد» الأولى في البيت، تضيف على أجواء الجميع حسَّاً خاصاً. صياحه، أناشيد «حياة» بتهدئته ليلاً:

«هدا هدا، حمادين شره غدى».

تزحف إلى غرفة «فجر».. حرصت «حياة» على أن تختار «فجر» غرفة نوم جديدة بنفسها. توجِّه الصغير بتودد ناحيتها:

«اذهب لأختك».

محاولة أن يزحف أو يخطو إليها.. بدايات تهجئته:

«ماما».

بعد أن أتم عامه الأول، أنبت شعوراً جديداً.. صار الصغير يشاركها بشيء لم تعرفه من قبل. لحظات «حياة» ما سبق لها أن عاشتها.

الحاجة المُلِحّة للعناق الذي ما عادت تستهجنه «فجر» من «حياة»، بل تشتاقه. التفكير بتصرفات «حياة» التي لم يبدر منها ما يؤذي. وأفعال أخرى، شجَّعت «فجر» على الدنو باستحياء من «حياة»:

«بِمَ يمكنني أن أدعوكِ بدل خالتي؟».

«بالذي ترتاحين إليه.. ماما، أو حتى باسمي».

وتبتسم لها، صارت تناديها:

«أمي «حياة»».

بينما استمرت «حياة» تلعب دور الأم الحقيقية في مراهقة «فجر»، وصارت تهتم بوجودها هي أيضاً.

«أمي «حياة» اصحبيني معك للتسوق.. أمي «حياة» درسيني.. أمي «حياة» شاهدي معي المسلسل.. أمي «حياة» شاركيني درس الأمهات في الفصل».

وقتها شعرت «حياة» بأن صورة الأبناء تنظَّمت كما تمنَّت. «فجر» أصبحت ابنتها فعلاً، حتى الأسرار تشاركها. بدأت «حياة» ترى في «فجر» النسخة الصغيرة التي تشبهها في محاولات تمردها، غضبها، تعبيرها عن نفسها، رغم معرفتها

التامة بزعزعة ثقتها بنفسها من الداخل، وهي ما تشترك به معها أيضاً، إلا أنها تجيد إظهار عكس ذلك.

ارتاح «طلال» باقترابهما لبعضهما، حتى خفَّ إلحاح «فجر» عن أمها. اقتربا من بعض جداً، ما أنشأ فراغاً بين «طلال» وتواصله معهما، حتى عندما ينهر «فجر» عن شيء، توليه ظهرها وتقول:

«سأخبر أمي «حياة»».

اهتمت «حياة» بأمرها، ما جعلها تساعدها في تربية «حمد» كذلك، تحضير قناني الحليب، هرس الطعام، ملازمته في المنزل عند خروجها، تلبيسه، مساعدتها بتحميمه. تحفيظه أناشيد الروضة، الواجبات المدرسية.

صارت «فجر» تلازم «حياة» في مناسباتها أيضاً. ويوماً ما، بينما كانتا تبحثان في السوق عن بدلة لمناسبة زواج قادمة. تبعهما شاب إلى المحل، وقد كان يستمر في اللحاق بهما منذ وصولهما إلى المركز التجاري. لم تُعِر «حياة» موضوعه اهتماماً، لظنها أنه كان يحاول معاكسة «فجر»، والتي بدأت تظهر عليها بوادر النضوج. إلا أن الشاب لم يبدِ أية مضايقة، التفتت إليه «حياة» وفاجأته بالحديث:

عفواً أخي، أنت تلاحقنا منذ مدة، هل تريد شيئاً؟

تردد ثم تابع وهو يشير:

«أنتِ «فجر»، صحيح؟».

نظرت «حياة» إلى «فجر»، وقد خافت الأخرى من ملامح الاستفزاز على «حياة»:

«والله لا أعرفه».

قاطع نظراتهما بطلبه للحديث معهما بشأن موضوع يخصّ الابنة. وافقت على الحديث معه في مقهى مجاور للمحل، رغم أنها زادت قلقاً. «فجر» ملتصقة بـ«حياة»، وقد جلس الشاب على الكرسي أمامهما. «حياة» تستعجله بالكلام. وضع رِجْلاً على رِجْل، وقال:

«اسمي «فهد»».

«وكيف تعرف «فجر»؟».

أعرفها حق المعرفة.

«حياة» ترمق «فجر» متشككة. ينادي «فهد» على الجرسون، ينظر إليهما باستفزاز:

«ثلاثة شاي».

«لا نستطيع الجلوس لمدة أطول.. كيف تعرفها؟».

««منى» أمها.. تكون أختي.. أنا خالك «فهد» يا «فجر»، بالتأكيد لا تذكرينني».

تلتفت «فجر» من حولها، شعور قديم عاد يطرق حناياها بقوة، دارت فكرة في رأسها:

«أمي هنا.. هل تراقبني من بعيد؟».

تقاطعه «حياة»:

«عليك أن تتحدث مع أبيها، ليس معنا».

استعدَّت «حياة» للمغادرة، فمنعها:

«لن يستمع إلا لنفسه».

بدأ «فهد» يسرد محاولاته العديدة للتحدُّث مع «طلال». يلتفت إلى «فجر» وهي تنتظر الرد بتلهف:

«لكنه يرفض».

استمعتا إليه بتوجس. تابع يستجدي عاطفة «فجر»، ويؤكد عدم رؤية والدتها بسبب والدها.. ما استحملت «حياة» الحديث، نهضت، دوَّنت له رقم «طلال» على ورقة الطاولة، سحبت «فجر» من ذراعها، وعلَّق:

«أحفظ رقمه عن غيب، يتجاهلني كالعادة».

غادرتا المكان دون ردّ. انطوى طريق العودة إلى البيت بصمت مزعج. تصارع «فجر» توازن شعورها بأبيها، الذي يعود يهتز كلما تحاول تثبيته.. تهرب «حياة» من نظرات «فجر» التي تشحذ تعليقاً، فاكتفت:

«سأخبر والدك، وهو سيتصرف».

ترجوها:

«لندع الأمر بيننا.. أرجوكِ، أريد مقابلة أمي، بعدها قولي لأبي».

لكن «حياة» أصرَّت على رفضها، فأخبرت «طلال» بشأن «فهد».. ولم يتردد «طلال» ثانية، فهرع إلى بيت «فهد»، وهدَّده بعدم الاقتراب مرة أخرى من «فجر». دفع «فهد» بـ«طلال» إلى الخارج:

«سأشتكي عليك بالتهجم».

«بل أنت تهجمت على زوجتي وابنتي».

««فجر» ابنة أختي كما هي ابنتك».

«لا علاقة لك بها!».

«لن تمنعني!».

«فهد» أغلق الباب، فأتبعه «طلال» ببصقة من بعيد.

عاد «طلال» إلى بيته، وجد «حياة» في المطبخ، تمنى أن يرتمي في حضنها، شعر بتردد.. ذهب إلى الحوش، استل نَفَساً من سيجارة، سعل عدة مرات.. أغمض عينيه بقوة، رمى بالسيجارة قبل أن ينتهي منها.. صوت «فجر» راجفاً من خلفه:

«أبي.. أريد رؤية أمي».

داس قطف السيجارة، مسح دمعته، والتفت إليها.

«قريباً آخذك لها».

ظلت «فجر» تصلي للوقت الذي صار يأخذ الوعد إلى أبعد ما يمكن. صارت «فجر» ترفض مرافقة «حياة» في التجمعات النسائية، حفظت لنفسها الأسرار، وصبَّت حنقها من الوعد القريب على «حمد»، تنادي «حياة» باسمها إذا اضطرت لذلك، وتتجنب الحديث معها.

تنتبه «حياة» لشرود تفكيرها، عندما دخل زوجها و«فجر» إلى غرفة «حمد»، يتبعهما الطبيب «سيف» حاملاً معه:

«البشارة».

تستعيد «فجر» قوتها لتقترب، وتفتح ذراعيها:

«اشتقنا لكِ». تحضنها.

ويتابع دكتور «سيف»:

«غداً صباحاً، سأوقِّع على أوراق خروج «حمد» من المستشفى!».

أواخر مايو

- 1 -

يقترب «حمد» من باب المنزل، يرفع رأسه، ليتفاجأ برماد الطابق الثاني؛ حيث كان يطل منه قبل الحريق. يستعيد استغاثة «فجر». يطوف ببصره حول شكل البيت الذي كان يحفظ تفاصيله، أفزعه نصف الكنبة التي كان يجلس عليها لمتابعة التلفاز، مرمياً على كتف الرصيف. يتحسس مقبض الباب بصعوبة، تحيط والدته كتفه اليمنى لتساعده على تخطي العتبة. ثم يضغط على راحة والدته ويدخل إلى البيت.

بدت لـ«حمد» مراقبة الأشياء من حوله أمراً مزعجاً، بعد أن كان معتاداً على تفاصيل المكان. ابتداءً من الصالة الرئيسة التي صارت غرفته فجأة، بعد أن استغرب وجود سريره مركوناً أمام المدخل، تعلِّق أمه:

«لتكون بالقرب منا».

يستلقي «حمد» على مكانه الجديد، مستوحشاً شعور انتقاله للبيت مرة أخرى، مفتقداً أجواء المركز، كما لو أنه اعتاد عليه!

ينظر إلى الأعلى بعينه اليمنى، يسترجع سقف العناية المشددة الأصفر، فسقف الغرفة العمومية والغرفة الخاصة الأبيضين، ثم سقف الصالة التي صارت مكاناً لسريره، ويظل يربط تفاصيل الزخارف فيه، يمرر على تموجات الديكور، يعدّ المربعات. يغمض اليمنى، ليرى بالأخرى.. فيتذكر الطبيب «سيف»، عندما أهداه عصبة للعين، تشبه تلك التي يستخدمها القراصنة، ثم همس له وقت خروجه من باب المستشفى:

«حمد.. عِدْني أن تكون قوياً».

يلاحظ أن كل الأشياء باتت أقرب إليه؛ قنينة الماء على بعد يده، جهاز التحكم بالتلفاز تسلِّمه إياه «فجر».. دون مشاجرة. الصفحة الأخيرة لرسمة الكاريكاتير التي تتجدد القوارب والقوالب والشخوص عليها من الجريدة التي يقرأها والده، صارت تواجهه كل صباح. أمه «حياة»، افترشت سجادة الصلاة أمام الحائط المجاور له. بعد أن تفرُغ من كل صلاة، يسمعها توشوش باسمه، رافعة يدها للسقف الذي يعود بين لحظة ولحظة لتفحُّصه، ثم تقترب إلى وجهه، تدهنه بكريم (البيبانثين)، تتألم لملامسة باطن كفها خده، تنفث من فوقه، فيتخلل وجهه نسمة باردة من رَوحها.

تبدأ الصباحات تستعيد عافيتها في بيت النّهاب، بإتقان «حياة» لإعداد سفرة الطعام. تقرِّب إلى «حمد» صحنه، عينا البيض كما يحب. يتركها تفقسهما. تغرف الصَفَار بملعقة

صغيرة، إلى جانب فمه المفتوح. تمر اللقمة إلى جوفه دون أن يمضغها.. «طلال» و«فجر» يأكلان على السماط أرضاً، تاركين مكانه فارغاً بينهم، لعله يرضخ للمشاركة.

تتزاحم الهدايا على مدخل الباب طوال الأسابيع التي تلت خروجه من المستشفى، وهدايا وأخرى تحتاج مساعدة لرفعها.. لكنه لم يكترث لشيء منها، ولم يلحظ حاملها. أثار انتباهه مرة تردد أسماء أبناء عمومته وخالاته. يسترق النظر من تحت لثام اللحاف، ليتأكد إن كان أحد منهم قد حضر مع والديه.. فيستمع إلى همس خالاته:

«حسناً فعلنا بعدم اصطحاب الأطفال، مسكين.. لذعروا من شكله!».

تأخذ «حياة» دوره في التظاهر، بينما تنظر إليه راجية أن يقوم هو بذلك. يرمقها بطرف يمناه أن تستلم هي المهمة:

«شكراً لكم على الهدايا، سوف يحبها فور استيقاظه من النوم».

بينما يدعو أن يخرج الزوَّار حالاً. تخبر «حياة» «طلال» بالأمر، يزفر ويضيف: «يبدو أننا تعجلنا بشأن لقاء الناس به». تتنهد «حياة»:

«لا أعلم».

تفكِّر قليلاً ثم تتابع:

«سأستشير الطبيب «سيف» بذلك».

«لا تقحميه بالموضوع، يبدو أنه صار متضايقاً من إلحاحنا عليه».

- 2 -

يتردد «حمد» ووالدته أو والده أسبوعياً على المركز، ليفحص الأطباء وضعه هناك. ولم يعد ذات الطبيب يراجع حالته. افتقدت العائلة الطبيب «سيف»، سألت «حياة» الممرضة عن مكانه. تذهب إلى مكتبه، سعيداً برؤيتها، غير أنها قاطعت ترحيبه معاتبةً غيابه عنهم. يعتذر لها بأنه كان في فترة إجازة، تتوسل إليه:

«حاول أن تأتي لرؤية «حمد» قبل الدخول إلى عمليته صباح الغد».

يسحب ملفاً من على المكتب، ليقترب منها. يفتح الورقة الأولى، يشير إلى اسمه في أعلى الصفحة؛ بأنه هو من سيشرف على العملية. استبشرت «حياة» خيراً. تلتفع عباءتها إلى رأسها وتخرج سعيدة بالأمر. قاوم «سيف» تعاطفه، تذكَّر حديث «مشاري» عن القوة. ابتسم في سِرِّه، أخرج من دُرجه علبة مغلفة، وخرج ليطمئن على «حمد».

في غرفة المستشفى، ينظر «حمد» إلى أعلى، عملية تلو عملية، غرف جديدة، سقف يتلوه سقف، حتى وجهه تتلوه

وجوه أخرى، حار في التغيير الذي ما لبث أن أصاب الصالة في بيته، حتى وصل إلى كل ما هو من حوله. حتى عائلته التي ظلت بجانبه، يلتفت إلى مقاعدهم التي تتبدل، رغم أن «حياة» تظل ملاصقة لسريره. صار يرى والده أكثر، «فجر» خفَّت من مشاجرتها التي صار يشتاق إليها، والخوف المتصاعد من والديه اللذين صارا يتبادلان الأدوار أحياناً في توسلهما إليه أن يتقوى أسرع ليخرج أكثر، أن يتكلم ولا يكف عن أسئلته التي اشتاقا إليها.. هو ما كفَّ عن السؤال، هو كفَّ عن التحدُّث به.. حتى العائلة صارت تساؤلاً بالنسبة له؛ فما الذي يصير حتى يلمّ حضن عائلة كأنها تعيد ما فاتها من أيام؟

يخرج «طلال» و«حياة» إلى غرفة المصلى في المستشفى. تقترب «فجر» إلى «حمد»، تخبره عن لون الثوب الذي اختاروه لحفل التخرج، وتسأله أن يحاول أن يتقوى ليتمكن ووالدته من الحضور أيضاً، وتمنى «حمد» ذلك في نفسه. يقاطعهما دخول الطبيب «سيف»، يحييّ «فجر»؛ بينما تذهب نظراته إلى ندوب معصمها. ثم يُخرِج من جيبه العلبة المغلفة، ويقدمها لـ«حمد»، ينتبه إلى أنها تحاول أن تستر ذراعها اليسرى خلف الكرسي. تستاء «فجر»، فتترك الغرفة. «سيف» يطلب من «حمد» أن يفتح العلبة، سُرّ «حمد» عندما وجد جهاز ألعاب فيديو (غيم بوي)، رفع إبهامه الأيمن، ضحك «سيف»، وهمّ بتشغيل اللعبة معه.

يعود «طلال» و«حياة»، متسائلين:

«إلى أين ذهبت «فجر»؟».

يخرج دكتور «سيف» ليبحث عنها بين الممرات، في الكافتيريا، في الحديقة الخارجية، لم يجد لها أثراً.. عاد ليسأل الممرضات، وصفها لهن، طويلة، شعر مرفوع، تي شيرت مخططة بالأبيض والأسود، عيون رمادية.. أجابوه:

«قد تكون في غرفة التضميد».

ينطلق لغرفة التضميد، يجد «فجر» كما أحسن وصفها، تجلس أمام ممرضة تقوم بلف يدها اليسرى بالشاش. بفزع:

«ماذا حدث لكِ؟».

تتجاهله وهي تشير للممرضة أن تكمل لف الشاش، يكرر عليها السؤال. تلتفت إليه:

«لا شيء».

««فجر».. أنا طبيب هنا، قولي لي ماذا حدث؟».

يضايقه برودها:

«أعرِف».

ينتظر إلى حين أن تنتهي الممرضة من إحكام اللفاف، يطلب منها الخروج، فتهم «فجر» باللحاق بها. يمد «سيف» ذراعه على الباب ليستوقفها:

«هل سال جرح ذراعك؟».

تنظر في عينيه مطولاً، وتقول:

«لا، لكن تضايقني النظرات إليه».

تسكت قليلاً فتتابع:

«أقصد نظراتك أنت».

«أنا طبيب، اعتدت على ملاحظة الجروح».

«عليك بمرضاك».

يقاطعها ساخراً:

«كل من يمر في حياتي، مريض محتمل لعلاجي».

«اطمئن، لن آتي إليك».

«لِمَ هذا الغضب عليَّ؟».

«ولِمَ هذه النظرات إلى ذراعي؟».

«أنا طبيب».

«لا يهمني!».

تترك «فجر» الغرفة، مخلفةً طبيباً غاضباً على تصرفه؛ وليس كلامها. بدأ دكتور «سيف» يراجع نفسه؛ فعلاً لِمَ يحاول هو أن يُقحِم نفسه في أمرها؟

تدخل «فجر» إليه ثانية، لتقول:

«أرجو ألا يعرف والداي بما حدث!».

«بماذا ستجيبينهم عن الضماد إذاً».

«لم ينتبه إليها أيٌّ منهما من قبل».

تظهر علامات القلق على تعابير وجه «فجر»، لم يخطر في بالها هذا الموضوع، سيشكُّون بالشاش. تطلب من دكتور «سيف» مساعدتها، ليؤكد أنها وقعت في الحمّام.. يكتف ذراعيه، ويجيب:

«لن أكذب».

إنه ليس وقتاً مناسباً لشجاعتك!

تلعن الموقف في سرّها. تتمنى لو تستطيع إطلاق كلمة تصغير في حقه، لعله يدعها وشأنها. تفكر قليلاً، فتجلس على الكرسي قبالته:

«ماذا تريد، أيها الطبيب؟».

«الطبيب يريد مساعدتك، بدلاً من أن تستري جرحك عن والديك».

تطلق ضحكة ساخرة قبل أن تسترسل:

أنا أستر جرحي عن نظراتك، ونظرات غيرك، بينما أنا أكثر من يحفظ الجرح يا عزيزي.

تعيد تفكيك الشاش، وتتابع:

«تريد أن أذكر لك متى جرحت هذا، أو هذا؟ بالمناسبة، هذا بالقلم؛ لأنه لم يتوافر لديَّ مشرط أو مقص.. ثم لِمَ تريد أن تقوم بدور بطولي لمساعدة أخت مريضك المجنونة؟ ها، قل لي: ما أقصى ما باستطاعتك؟ تضميده بشكل أفضل من الممرضة؟».

يشعر دكتور «سيف» بالقلق من تغيُّر لهجتها معه وعلو صوتها. بينما تحاول هي أن تمنع دموعها من السيلان، فتواصل:

«فعلاً؛ إنها ليست من الوقوع في الحمّام. إنها ندوب تساوي عمري، هل باستطاعتك أن تضمّد عمراً بكامله؟ اذهب إلى مرضاك أولى بك».

تلعن «فجر» وجودها هنا، تلعن الموقف، تلعن حديثها الذي تستعيده في رأسها، تلعن ضعفها؛ من أين أتت بكل ذلك الكلام أمام رجل يجمعها معه بضع عمليات لأخيها؟

يعتدل الطبيب في وقفته، يتظاهر بعدم اهتمامه بالموضوع. يطلب منها أن يغادرا في الحال، قبل أن يزداد قلق والديها على تأخُّرها. يعيد لف معصمها، وهو يخبرها بأنه ملزم بمعرفة كل مريض يدخل إلى أي مركز طبي يعمل به، حتى وإن احتاجت للتحدث عن ندوب معصمها، بينما هم في مركز تخصصي للحروق والتجميل، فتلعن الطبيب في سرها أيضاً. يتابع؛ يخبرها بشأن القَسَم الذي أقسَمه بشأن صون

حياة الإنسان في كافة أدوارها، في كل الظروف والأحوال، باذلاً ما في وسعه في استنقاذها من الموت والمرض والألم والقلق، وأن يحفظ للناس كرامتهم، ويستر عوراتهم، ويكتم سرهم... وقبل دخولهما إلى غرفة «حمد»، يهمس لها:

«سأكذب!».

مضى يومان بعد العملية، لم تحضر فيهما «فجر» إلى المستشفى. ويتناوب كلٌّ من «حياة» في الليل، أو «طلال» في الصباح، على وجودهما في المستشفى. تحرَّج دكتور «سيف» أن يسأل أياً من أهلها عنها. بحث في سجلات المستشفى عن رقم هاتف منزل «حمد». لكنه استنكر الموضوع على أمانة عمله، استهزأ من نفسه بضعفه أمام غيابها. ثم اشتكى إلى «مشاري»، بدا عليه متضايقاً من تعليقات «مشاري» السخيفة، ظنّ الأخير عدم جدية «سيف» إلا بعد أن أقرّ له:

«لا أعرف ماذا يسمى.. لكن وجودها في المشفى كالبلسم، يثير حفيظة طبيب اعتاد التعامل مع الحروق مثلي».

كذلك أخبره بشأن تمديد مكوث «حمد» في المستشفى حتى نهاية الأسبوع، لعل أخته تقوم بزيارته. فأكد «مشاري» له جنونه!

- 3 -

«سلِّم على «محسن»».

يتفجر وجه «حياة» من السعادة، وهي تساعد «حمد» ليمد ذراعه لمصافحة صديقه «محسن»، الذي حضر ووالدته إلى المستشفى، كما نفَّذ «سيف» طلب «حمد» له. وكان «محسن» متلهفاً للِّقاء أيضاً، فحاولت أمه منذ أن وصل من المدرسة، وطوال طريقهم إلى المستشفى، الحديث معه حول تغيُّر شكل صديقه، وألَّا يُعلِّق أو يُظهِر خوفه، وأنها سوف تبقى معه إن لزم الأمر للخروج. لم يعنِ شيئاً لـ«محسن»؛ سوى ألَّا يتأخر عن اللعب مع «حمد» لمدة أطول.

يدخل «محسن» إلى غرفة «حمد»، مُمسِكاً بيد أمه، التي شد عليها لحظة دخوله، بدل أن يُفلِت منها كما خطط. تلامس الصديقان بأطراف أصابعهما وهي ترتجف. يحدِّق «محسن» في جانب «حمد» الأيسر، وينظر «حمد» إلى أمه من خلف صديقه، فرِحَة بلقائهما. تلاحظ «حياة» خوف «محسن»، فتسحبه ناحيتها، مدَّعية أنه لم يُسلِّم عليها أولاً. يلتفت الآخر إلى أمه أيضاً. تتقدم أمّ محسن للأخذ بيد ولدها، ويبدو عليها أصغر من «حياة» وبأناقة لافتة، جعلت «حياة» تُراجِع لباسها وتصفه بالرث. تشير أمّ محسن للهدية التي معهما؛ بأنها سوف تُعجِب «حمد» جداً. يبتسم لها «حمد»، راجياً أن تترك «محسن»

ليقترب إليه أكثر.. تقاطع «حياة» حكاية النظرات بين الصديقين:

«حمد.. هل تريد أن تفتح الهدية مع صديقك؟».

ينظر «حمد» إلى «محسن»، نعم. يتمنى لو أنه هو يفعل ذلك، لو يأتي بالهدية ليفتحاها سوياً، ويلعبا بها دون هذا الخوف الذي يسيطر على صديقه، وقت أن قال نعم. يقترب «محسن» إلى سرير «حمد»؛ بينما تهتز ساقاه.

تختلق أمّ محسن حديثاً مع «حياة» عن لطف الطقس هذا اليوم، وعن تخفيضات أسعار السوق المركزية، وهما تتراجعان إلى الكراسي. ظل «محسن» ينظر لصديقه، يزيح غُرته كلما حجبت عنه وجه صديقه الجديد. بعد دقيقة صمت، يبدأ «محسن»:

«لماذا؟».

«النار».

ثم يلتفت «حمد» إلى الناحية الأخرى.

أراد «حمد» أن يقطع الحديث عن الحادثة، اشتاق أن يفكر في الأشياء الطفولية، اللُعَب التي كانا يتشاركانها أثناء الفسحة المدرسية مثلاً، المسلسلات الكارتونية التي يتابعانها، برنامج عيش السفاري، الذي تمنّيا المشاركة فيه. لكن «محسن» يتابع، يُلِح كيف وصل إلى النار؟ ثم استجمع جرأته وهمس في أذن «حمد»:

«هل توقفت عن الصلاة؟».

وقبل أن يبدأ «حمد» الشرح، قاطعه:

«أمي دائماً تقول، الذي لا يصلِّي سيرى النار».

تفاجأ «حمد» من استفسار صديقه الذي لا يعرف له إجابة. يسترسل «محسن»، يشرح عن النار التي حذرته منها والدته، وهي تمسح على وجهه، فتقول:

«تشوي الوجوه».

يلتفت «حمد» لأمّ محسن، يرمقها بحنق. وظل «محسن» محاولاً أن يسترق من خارطة وجه صديقه إجابة. يغيِّر «حمد» الكلام عن وجهه الذي صار سؤالاً كونياً في قلب صديقه، ويستفسر عن مشروع العلوم الذي كان يشترك فيه مع «محسن» وبقية أصدقائهما، بشأن بذور الفول التي زرعوها فوق القطن، ولوحة تشرح الدائرة الكهربائية. تفاجأ «حمد» حين قال «محسن» إنهم انتهوا منه، وأخذوا جميعاً علامات كاملة.

«وأنا؟».

يُطبِق الضيق على صدر «حمد»، حين قال «محسن» بأن أبلة «ندى» قالت بأنه لن يعود ثانية إلى المدرسة. تابع «محسن» ثرثرته وهو يشير إلى عصبة عين صديقه، بصوت مرتفع:

«حمد.. هل ستعيش بوجهين طوال عمرك؟».

يجرّ «حمد» اللحاف إلى وجهه. تعود غُرة «محسن» تحجب عينيه، تمسح أمّ محسن على كتف «حياة»، تسحب ابنها ويغادران بهدوء. ينادي «حمد» والدته، يخرج صوته من تحت اللحاف:

«ماما، هل سأعود يوماً إلى المدرسة؟».

يونيو

- 1 -

اقترب موعد حفل تخرُّج «فجر» في الثانوية العامة. قلقة كانت من الذهاب وحدها مع والدها، أو بإمكان «حياة» و«حمد» المشاركة. خافت أن تكون الصورة ناقصة. التزمت بوجودها في المنزل، وبدأت تذهب مع «حمد» إلى مواعيده في المستشفى فور انتهائها من الاختبارات، بدراسة جيدة غير معهودة منها. بدأت تنتكس حالة «حمد» النفسية أكثر منها الصحية في المنزل، ولاحظ تعب والدته عند منتصف الليل، متظاهرة باستجابتها له بعينين نصف مفتوحتين. تغفو على طرف سريره في الصالة، مستندة إلى الحائط، وهي تقرأ على كتفه الفاتحة سبع مرات، أو يباغتها النوم في المرة الخامسة، فيكتم أنينه، ويصرخ في نفسه. تظل هي تهدهد له في الحُلم.

انتبه «حمد» لصوته الذي تغيّر، وأضاف ضحكته للأشياء الجديدة التي يجب أن يعتاد عليها؛ كاليد الواحدة التي تأتي بكل شيء. رجل واحدة تلمس الأرض. عين واحدة تتعرف إلى السقف، عروقه التي نفرت في وجهه الذي يتفحصه في

مرآة الحمّام، ويحاول أن يستذكره قبل أن يتغير، فيطرأ سؤال معلمة الرياضيات الذي لم يجبها عنه بعد. يشير لنفسه:

«كيف قَبِل القسمة؟».

أكد لهم الطبيب «سيف» أن الآن يجب أن يأتي دور الطبيب «مشاري».. رغم أن «حمد» وعائلته أصروا على وجود «سيف» معهم أيضاً، فصار يتناوب بين عمله والوجود مع «حمد». لم يستطع أن يكبح مشاعره أو يخفيها، تعاطفه الزائد كان واضحاً. وحين سمع حديثهم عن تخرُّج «فجر»، شاركهم الفرحة بقلبه، تماماً كحجم فرحتهم، فأرسل باقتَي ورد أرسلهما، واحدة لـ«حمد»، وواحدة أكبر لـ«فجر» بمناسبة تخرُّجها، لكن قبل ظهور النتائج!

«فجر» شَكرَت الطبيب «سيف» في أحد مواعيد «حمد» إلى المركز. كان واضحاً عليها القلق من الحفل، أقسم لها «سيف» بأنها تُبطِن شيئاً وراء القلق. حاولت أن تكتم الأمر لعدة أيام، فما استطاعت.

تعود «فجر» في زيارة أخرى إلى المركز مع أخيها، مختلقة موضوع الشاش على كفها. تخبر «سيف» بأنها كانت تحاول أن تجد فستاناً بأكمام أطول يغطي الندوب. يستغرب راحتها في الحديث عن الموضوع، وتابعت تخبره متى جربت الموضوع أول مرة، بنصيحة من إحدى صديقاتها التي مرّت بظروف صعبة في حياتها أيضاً. يرد عليها «سيف»:

«هذا ليس حلاً».

وهي تصرّ على أنه الحل الوحيد الذي تختاره هي بحُرية تامة منها. انتظر لحين انتهت من شرح فكرتها. شكّ حين امتدحت «حياة»، وعرف حينها أنها ليست والدتها:

«هل بسبب والدتك؟».

تتنهد «فجر». تخاف «لِمَ هي تشرح له كل شيء؟ لماذا هو يعرف؟ كيف يسأل أسئلته؟»، تابعت تشرح له الموضوع، عرجت على خالها الذي ظهر في حياتها فجأة، لكن يرفض أبوها الاقتراب منه. يعود «سيف» يقول شيئاً في محلّه، كما تصف كلامه:

«لِمَ لا تحاولين التواصل معها بنفسك؟».

تفكِّر «فجر» كثيراً. تظل تراجع كلامه، قلقة من القرار الذي دار في رأسها.

يشغلها الموضوع في المنزل، ولم تعد لاستشارة «سيف» به. تجلس «فجر» و«حمد» في الصالة وحدهما، حيث خرجت «حياة» و«طلال» لبعض الوقت. يسود الصالة صوت التكييف، تظهر على التلفاز حفلة غنائية بصوت مكتوم. تدَّعي «فجر» تصفُّح مجلة، بينما تدقق في هيئة عروق يد «حمد» النافرة، أصابع يده اليسرى المتضخمة، وهو يرفعها ليحك رقعة العين. يحاول بتثاقل أن يمد يمناه لقنينة الماء،

فتقوم من فورها لتساعده على حملها، فيرفضها. تعيدها إلى الطاولة، وتقرِّبها إلى سريره.. خطرت في بالها فكرة. تقلِّب القنوات سريعاً، تختار مسلسلاً كرتونياً ليتابعه «حمد»، وتغادر الصالة.

تسحب «فجر» سلك الهاتف من الصالة إلى الغرفة المجاورة، تتصل بالرقم المدوَّن بورقة صغيرة في جيبها. يتصاعد وجيب قلبها مع كل رنة. تتردد في أن تغلق الخط.. لم يسعفها الندم، سَبقها بالرد خالها «فهد». تُعرِّف بنفسها دون تحية، تهمس إليه بصوت خافت على عجل:

«تعالَ بسرعة الآن... إنه أمر ضروري، هل تستطيع؟».

شَكَّ «فهد» في أن يكون «طلال» مَنْ أمرها بذلك. أقسمت أن لا.

يصل «فهد» في غضون 15 دقيقة إلى بيت النّهاب، يركن في مواقف فرع البقالة الذي يبعد عن البيت 5 دقائق مشياً ـ كما طلبت منه. وجد «فجر» في انتظاره بجانب الباب الخلفي الصغير، ممسكة ببطاقة، وتنظر إليه يعبر الشارع من خلف شجرة الجهنمية:

«كيف حالها؟».

يبتسم «فهد»، ويرد:

«لِمَ لا تقولين أمي؟».

تتورد وجنتاها. فتابع:

«كل يوم تتمنى رؤيتكِ، لكن الكلب».

«لماذا لا تكلمني هي؟».

«زوجها يخاف عليها من أبيك».

تمدّ له يدها قائلة:

«أعطها البطاقة، سأكون سعيدة لو حَضَرَت».

يستلم البطاقة، ويرفع وجهه ناظراً إليها:

«وبطاقتي أنا؟».

تبتسم قائلة:

«شكراً، لا أريد أن يتحول حفل تخرجي إلى دفنك!».

«بنت «طلال»!».

«هيا تحرك قبل أن تلتقي به».

يأخذ منها البطاقة، فتخاطبه قبل أن يبتعد:

«لماذا تأخرت عليَّ تلك الليلة؟».

«وصلت مع أبيك. شهدته يجرّك من باب المدرسة.. وبالمناسبة، حزِنَت أمك كثيراً».

تشكّ في صدقه. ترجوه:

«قل لها أن تحاول، هذه المرة فقط لأجلي».

تصفق الباب الخارجي، وتعود إلى الصالة، تجد «حمد» وقد أفزعه الصوت. فيسأل «فجر». لم تفهم ما همهم به، تقترب ليُعيد:

«هل عادت أمي؟».

تنفي. ثم يقاوم «حمد» الهدوء، ويطرق قائلاً:

«اشتقت إليها».

تسرح «فجر» في شكل الحفلة، بحضور أمها «منى».. تتخيل أول عناق معها، ستحفظه في صورة. ستتعرف إليها، أو تجعلها هي تُفاجأ بها وقت مناداة اسمها. سوف تعرِّفها إلى «حياة» كذلك. تتردد:

«لا لا، ستزعل إحداهما.. ماذا سأقول؟ أمي «حياة»؟ أم خالتي؟».

تضحك في سرها:

«سآخذ صورتين، مع أمُيّن، كم أنا محظوظة!».

تضحك على أفكارها، التي ظلت معها تزيد وتتشعّب أكثر فأكثر.

يمر الأسبوع، ويزداد وقوف «فجر» أمام المرآة لمدة طويلة، كلما يقترب الموعد، ويلاحظ أهل البيت توترها المتصاعد. «ستحب الأبيض» ترتدي الفستان الأبيض، يخبرها بتفاصيل

جسدها الذي لم تنتبه إليه يتغيَّر. تطلق إطراء على شكلها، ثم تضحك. «بل ستحب الأسود»، تتخيل المرآة والدتها «منى»، ستلكز كتفها اليمنى وستقول لها:

«لقد كبرتِ يا ابنتي».

سوف تحمر وجنتاها، وتغوص في حضنها، تستعيد ما فاتها. ثم تنتبه «فجر» أنها تتحدث للمرآة، فتبتسم.

صارت «فجر» تركض بخفة في البيت، تُغني في طريقها إلى «حياة»، تسألها أيُّ الفستانين؟ تُقبّلها وتمضي، لتأتي بفساتين أخرى.. تتذكرها «حياة»، وقت أخذتها لأول مرة لحفل إحدى صديقاتها، رغم أن «طلال» أخبرها بعدم الضرورة، فأقنعته بالعكس. دخلت معها الحفل بفستان اختاراه سوياً، وعرَّفت بها:

«ابنتي «فجر»!».

نظرت إليها «فجر» بفخر. كان وقع الكلمة جديداً عليها أمام الناس، وظل يكبر منذ ذلك الموقف حبها لأمها «حياة».

تُجرِّب «فجر» أحذيتها.. القصير يُخفي جمال الفستان. الكعب العالي:

«سيجعل البنات يضحكن على طول قامتي».

فتعود إلى «حياة» لتسألها.. مرة أخرى، أن تترك شعرها مستقيماً أم متموجاً للحفل؟ تستعجلها بالإجابة، وتقبِّلها ثانية.

«طلال» صار يحضر في المنزل أكثر. يسأل «حياة» حول أسلوب «فجر» الذي تغيّر، عن عنادها الذي خفّ، قضائها الوقت معهم في الصالة بدلاً من الغرفة. ترحيبها بزوار «حمد»، الاقتراب منه. مشاركتها بالأعمال المنزلية.. «مستبدلة» كما لقَّبها.. «حياة»؛ رغم ملاحظتها، لكنها تُعلِّق:

«هذه ابنتك، أنت بتّ تعرفها، لأنك صرت توجد بالمنزل أكثر!».

تزعجه صراحتها. «حياة» لم تتذمر لغيابه من قبل، وهي لا تعلم إن كان لا يعنيها أصلاً!

حيث كان بعد سنتين من زواجها، يغيب بالأيام، فيعود منكسراً، لا تسأله كثيراً، فيترك هو الأمر مفتوحاً. كان يعنيها كل من في البيت، هو أراد أن يكون خارجه.. وفي كل مرة تسألها والدتها إن كانت تشُكّ في أمر ما في زوجها، تجيب:

«كل ما يلزمني لديَّ، لِمَ أتذمر؟».

بالنسبة لـ«حياة»، هو لم يتغيّر؛ متى كان موجوداً؟.

لم يعرف «طلال» قط، كيف يتعامل مع أسلوب «حياة» السلس في الكلام. هي تعرف كل ما يريد أن يوجد قبل طلبه! حتى عندما اشتكى لصديقه ذات مرة؛ بينما كانا في رحلة صيد، من علاقته الزوجية، توقَّف صديقه بالقارب وقال:

«تزوج عليها!».

أجابه منكسراً:

«تقوم بواجباتها وأكثر».

ثم نظر إلى البحر أمامهما، وتمنى لو يغطس القارب بهما فيرتاح من التفكير. تساءل:

«لماذا كان يتذمر إذاً؟ هي كان فيها كل ما بحث عنه في «منى»».

أجاب نفسه:

«لكنها ليست «منى».. ليست «منى»».

استلّ من جيب صديقه سيجارة. سعل بقوة، فاهتز القارب. ولكنه لم يغرق كما تمنى.

عاد ليلتها من رحلة الصيد، إلى زوجته «حياة»، التي يَعِي أنها تقوم بواجباتها، وسيرى منها أكثر مما يطلب. فوجدها ممددة على السرير، الذي لم يعد يشاركها فيه بعد ولادة «حمد». اقترب إليها، رتبت له مكانه بجانبها. أسند رأسه إلى حضنها، بدأ يعترف لها عن علاقة عابرة مرّ بها، ثم نظر في عينيها منكسراً، فقطعت حديثه: «شششش...». شرّعت حضنها، ودثرته. ظلت تشاغبها «لماذا؟» طوال الليل، والأيام. ومرت السنوات، لم تُذكِّره بذلك، فتفاقم الذنب في صدره.

وكَبرت ابنته التي خاف عليها من الأيام، صارت «حياة» تخاف على «فجر» من فرط خوف أبيها. خوفه الذي يمنعه

أن يعبّر لها بالطريقة التي تجب، خوفه الذي منعه أن ينظر إلى «حياة» مرة أخرى في عينيها، بدل أن يحاول مجاوزة الحوار، وخوفه الذي يكبر بفقد كل ذلك.

تقاطع «حياة» خياله:

«هذه هي ابنتك، لم تتبدَّل.. حاوِل أن تقترب منها!».

- 2 -

في قاعة الراية بمدينة الكويت. تنطلق أغنية تعبِّر عن فرحة التخرج. تتابعت الطالبات بالدخول إلى القاعة بأثواب التخرج البيضاء، على الممر الطويل المكسوّ بالورد، ممتداً إلى خشبة المسرح. تبحث كل طالبة عن مكان عائلتها، حيث يجلسون على جانبي الممر. تتسع وجناتهن إلى من يشير من أحد أقاربهن لالتقاط صورة. يبدأن بالجلوس على الكراسي المرصوصة في المسرح. تنقِّب «فجر» في وجوه النساء اللاتي يُزغردن، اللاتي يبكين فرحاً، واللاتي يُلوِّحن بأياديهن. تلتقط الكاميرات «فجر» تائهة، فتُبطئ خطواتها في كل مرة تتقدم إلى المسرح. يظهر إليها وجه والدها، يضرب كفيّه بإيقاع بطيء، لا يتناسب ونغمة الأغنية، يجلس وحيداً، فتلوِّح له..

تمنت لو استطاعت «حياة» الحضور. لكنها دخلت إلى غرفة «فجر» قبل توجُّهها إلى الحفل، وجدتها اختارت فستاناً أسود ذا أكمام طويلة. كانت ترسم الكحل في عينيها، أبدت

«حياة» إعجاباً بها، ومدَّت إليها علبة مربعة، وهي تقول:

«هذا لكِ.. اشتريته عندما خرجتُ ووالدك الأسبوع الماضي».

نظرت «فجر» إلى داخل العلبة، قلادة ذهبية تتدلى منها حلقة ماسية، وأقراط تحمل ذات الشكل. عقدت «حياة» حول رقبة «فجر» القلادة، فقبَّلت كتفها:

«كان بودي مرافقتك، لكن».

قاطعتها «فجر» بقبلة على يدها، لمعت عينا «حياة» وقالت بصدق:

«أتمنى حضور يوم زفافك يا بنتي».

لا تزال «فجر» تبحث بين الوجوه في القاعة، وقد اتخذت كرسيّها على المسرح. تُمنِّي نفسها بأن وجه والدتها قد تغيّر عن الصورة الوحيدة التي تحملها. تخرج الصورة من جيبها؛ «منى» بقميص أصفر ذي أكتاف عريضة، يلعب الهواء بشعرها الطويل، تحمل «فجر»؛ حيث كانت طفلة ذات العام، وهي تنظر إلى اتجاه معاكس للكاميرا، تلهو بلعبة صغيرة، تظهر صخرة الروشة من خلفهما، التقطها «طلال» لهما في رحلتهم الوحيدة إلى بيروت، أسفل الصورة مدوَّن التاريخ؛ 3/ 4/ 1990.

تحاول أن تخبئها بينها وبين صديقتها التي بجانبها، طالت

النظر في الصورة؛ كأنها تتعرَّف إليها لأول مرة...

تدس الصورة في جيبها. حيث لم تنتبه لعريفة الحفل أنها قد ابتدأت مراسم الاحتفال، كلمة الخريجات، نصائح المديرة، تقدير حضور مختار المنطقة، بداية نداء أسماء الخريجات.

ظلت شاردة بين الحضور. صديقتها بجانبها تلكز خاصرتها.. يُعاد اسمها للمرة الثالثة:

«الطالبة: فجر طلال النّهاب».

تنهض، يتعالى التصفيق. تمشي إلى حيث يقف مختار المنطقة ومديرة المدرسة أمام منضدة الشهادات. قلق واضح على تعابير وجهها، تتحدث إلى نفسها:

«لو أنها موجودة، لزغردت».

ترمق الحضور بطرف عينها.

«لعلها من فرط المفاجأة تبكي، ويهدِّئها النساء من حولها».

تراقب من بينهن. تلوِّح لها عريفة الحفل لتستعجل خطواتها. تصافح المديرة بِيَد، تستلم الشهادة بِيَد، وتنظر في اتجاه معاكس للكاميرا. تنهَّد «طلال»، وقال لنفسه:

«كم تشبهها!».

انتبهت «فجر» لوقت انتهاء الحفل، عندما تعالت قبعات الطالبات. تذهب إلى والدها، مبتسماً ينتظرها. يُطبع شيء من أحمر شفاهها على غُترته. يقترب أحد المصورين يسألهما التقاط صورة فورية. تلاحظ «فجر» وجود امرأة متلثِّمة بطرحتها، ترمقهما في آخر القاعة، لها عينان رماديتان كعينيها. يشير المصور لـ«فجر» أن تقترب أكثر، يمد «طلال» ذراعه ليحيط كتفها. تشعر بحنوُّه، تمد وجنتيها. يلتقط الصورة.

تستأذن «فجر» من والدها، وتهرع تجاه المرأة في آخر القاعة، بينما كانت تهرول للخروج منها. تلهث «فجر»، تثني ركبتيها أرضاً، وهي تراقب المرأة تركب سيارتها بسرعة. تناهى إلى «فجر» أنها تسمع زغاريد «حياة» في القاعة!

تهرع «فجر» إلى الحمّام، تغسل بكاء سنواتها على المغسلة. تستعيد استشارة الطبيب، ظهور خالها فجأة، هروبها من المدرسة، حريق «حمد»، وحفلة التخرج التي انتهت للتوّ. يد تربت على كتفها اليمنى. تقاومها. تصرخ بداخلها:

«لا أريد مواساة».

تزيد من تدفق المياه، تحشر رأسها إلى الصنبور. تحس «فجر» بارتجاف اليد وهي تمر على كتفها اليسرى أيضاً. تضربها بقوة، وتصرخ:

«دعوني وشأني!».

تنظر في عيني المرأة وهي تسحب كفها إليها، تشبه الصورة. بتجاعيد بسيطة، همس «طلال» في نفسه عندما رآها تخرج من القاعة:

«لم تزدها إلا جمالاً».

تشك «فجر» بأن الواقفة أمامها خيال لطالما تمنَّت وجوده. تأخذ منشفة صغيرة على المنضدة، تمسح وجهها، تمتزج المساحيق، ولكن ترى بوضوح أكثر، يرتجف صوتها:

«بربّكِ أنتِ؟».

أغسطس

- 1 -

«طلال» يقود السيارة حانقاً، بجانبه تجلس «فجر»، تطلّ من النافذة إلى المنازل الفارهة، تلمع أشعة الشمس الحارقة فوق الشبابيك الكبيرة. حدائق ضخمة تُزيّن المنطقة. سيارات حديثة الطراز، بينها سيارات كلاسيكية ملمَّعة لا تقلّ جمالاً عن الحديثة أمام المنازل. مرّوا بالشوارع الواسعة، الأشجار التي تقي حر الصيف ترتفع عند مداخل الأحياء. يركن «طلال» السيارة عند زاوية منزل عصري، يجمع درجات اللون الرمادي، ونوافذ زرقاء كبيرة. يشير إلى منزل آخر بجانبه:

«هذا بيت جدتك».

تنظر «فجر» إلى المنزل، حَوش كبير، يتوسطه بنيان البيت بحجر أبيض. تفتح باب السيارة، تلتفت لتودِّع أباها، بينما كان ينظر للناحية الأخرى. تُخرِج حقيبة كبيرة وثقيلة من صندوق السيارة، وتتجه إلى البيت الذي أشار إليه. وجدت الباب مواربا. تضرب الجرس، يصل صوته إليها. تفتح عاملة المنزل الباب، ترطن لها بلهجة كويتية متكسرة:

«مَنْ أنتِ؟».

«أين ماما «منى»؟».

تذكرت العاملة السيدة «منى»، وهي تأتي مرة أو مرتين في الشهر؛ تعطيها أجرتها وتذهب. لكنها اتصلت عليها هذا الصباح وأبلغتها بأن بنتاً صغيرة ستأتي إلى المنزل، من المحتمل أن تسبقها. تدخلها العاملة إلى البيت، تنتبه «فجر» إلى نخلة بأغصان منكسرة، في يسار الحوش. العاملة تستعجل «فجر» للتقدم إلى باب الصالة الرئيس، حيث الأثاث بسيط، وطاولة وحيدة أمام التلفاز، وقشور الفستق واللوز تملأ الطاولة. تلتفت «فجر» إلى العاملة:

«بابا «فهد» موجود؟».

زادت حيرة العاملة من البنت التي تدخل وتسأل عن أهل البيت الذي هجروه منذ زمن. فآخر ما تذكر العاملة عن «فهد»، عندما غادر قبل 15 عاماً بحقيبة سفر كبيرة، قَبّل رأس والدته، وأوصى العاملة عليها، ثم دفع الباب، واهتز كل جسد أمه.

تشير العاملة لغرفة في آخر الممر، حيث لا يوجد إلا تلك السيدة. تلحق بها «فجر» إلى الغرفة التي تنبعث منها روائح الأدوية، ممتزجة بمعطرات الجو من الماندرين والفانيلا. تكمم «فجر» أنفها وتدخل.

سرير طبي كهربائي في وسط الغرفة. مقعد بلاستيكي بجانبه، وامرأة مسنة بثوب أخضر، بملامح أكلتها التجاعيد، لا يتحرك منها إلا عيناها. تشير إليها العاملة:

«هذه ماما «عايشة»، تعرفينها؟».

تحييها «فجر»، فترد عليها العاملة بأنها لا تستطيع الكلام. تئن المرأة. تلتفت «فجر» لتخرج من الغرفة، ثم تعود المرأة تئن بقوة أكثر. تتأكد منها العاملة بأنها لا تعرفها:

«هذه ماما كبير، أم «منى» و«فهد»».

تحاول «فجر» أن تستعيد ذاكرتها مع جدتها الممددة على السرير أمامها، فلا تجد! تجلس على الكرسي البلاستيكي عن يمينها، فيخفّ أنين الجدة. تنظر إليها طويلاً. تدقِّق في ملامحها. تتركهما العاملة، وتذهب لتتابع مشاهدة فيلم في الصالة. تستوحش «فجر» المكان، رغم أنها تشعر بحنين غريب فيه. تمسح على يد الجدة المشلولة. تئن بنبرة فيها شيء من الراحة.

تتذكر «فجر» حديث والدها عن جدتها، كان يمتدحها على الدوام:

«لا تؤيِّد أمك في تصرفاتها».

تأخذ يد الجدة فتمسح بها دمعة يتيمة خرجت غصباً عنها. قال لها «طلال» مرة:

«كانت تحبك جداً، لو لم يكن خالك «فهد» في منزلها؛ لأمنتك عندها».

تتلألأ عينا الجدة، ثم تتوجه بنظراتها إلى الندوب على معصم «فجر». ضحكت «فجر» لنفسها بسخرية، ومرَّرت يد الجدة على كفها أيضاً.

تقاطع «منى» لقاء ابنتها بجدتها للمرة الأولى؛ كما ظنت «فجر». دخلت «منى» بعد أن استغربت وجود سيارة في الخارج، اقتربت منها، ففرّ السائق بها.

تُسلِّم «منى» على ابنتها، تسأل «فجر» عن حال جدتها التي لا تتذكر عنها شيئاً، ترد عليها بأنها كانت تأخذها في عطل نهاية الأسبوع، كان يوصلها «طلال» إلى هذا البيت حتى بلغت الثالثة من عمرها، تشير إلى دراجة هوائية صغيرة في المخزن، كانت تخصّ «فجر»، تدور بها حول حوض النخلة، وتهرول جدتها من خلفها. بعدها تعرَّضت الجدة لجلطة في المخ فور هجرة «فهد»، وتتابعت الأمراض تنهش بجسدها؛ فأقعدتها على السرير.

تأخذ «منى» ابنتها لجولة في أرجاء البيت، تريها غرفتها التي تطل على الشارع، وبمنضدة صغيرة تحمل كتبها الجامعية، مع برواز صغير يحمل صورة أخرى لـ«فجر» و«منى» في بيروت أيضاً، لكن هنا كانت «فجر» تنظر إلى الكاميرا. وغرفة «فهد» في الجهة الأخرى. عرفت «فجر» أن

«فهد» قد عاد منذ سنتين من هجرته بزوجة شقراء، يسكن في شقة يدفع إيجارها. تتنهد «منى» وتتابع:

«يريد أن يبيع البيت ليأخذ حقه ويرجع لغربته».

«ولِمَ لا يفعل؟».

تجاهلت الأم سؤال ابنتها، وأتت بألبومات الصور التي تحفظها الجدة في الأدراج. جلستا سوياً في الصالة، بينما لا تزال العاملة تشاهد التلفاز. عرَّفتهما «منى» ببعضهما. تذكرتها العاملة عندما كانت طفلة، فهي تسكن في منزل الجدة منذ أكثر من 25 عاماً. قالت لها عن الأكلات التي كانت تفضلها «فجر»، فتنشغل الجدة مع العاملة في المطبخ لتحضيرها قبل أن يصحبها والدها لتنام عندهم ليومين، ثم يأتي ويصحبها.

تفتح «منى» ألبوم الصور بجانب «فجر»، صورة لعرس «طلال» و«منى»، حيث كان في حَوش المنزل، بزينة بسيطة، وإضاءة صارخة، وبحضور بعض الأهل والأصدقاء. ثم صورة تجمع «فجر» يحملها «فهد» في الصالة، ويظهر جزء من وجه والدها «طلال» في طرف الصورة. تتابع الصور الكثيرة التي أخذتها جدتها لها قبل أن تمشي، وعند ظهور ضرسها الأول، وعندما بدأت تخطو خطواتها الأولى، تعلِّق «منى»:

«جمعت جدتك كل أطفال الحيّ ووزعت حلوى بهذه المناسبة».

تميل «فجر» رأسها إلى كتف «منى»، تمسح والدتها على شعرها، تخبرها بأنهما أخذا جمال الشعر من جدتها؛ حيث كانت في شبابها. ثم تتوالى في تصفح الصور، وتظهر «فجر» وحيدة فيها، أو طرف من العاملة أو بعض الأقارب الذين لم تتعرَّف إليهم. فتتساءل عن صورها مع والدتها. لم تجد إلا صور بيروت، التي أخذها «طلال» لهما.

تنظر «فجر» إلى أمها، تسألها عن الزواج من بعد «طلال». لم تختلف رواية القصة كثيراً، تحبه، موافقة أهله، ثم رفض «طلال». لم تعرج على موضوع استغفاله، وتابعت القصة سريعاً إلى حيث نيله حضانة «فجر». انشغلت «منى» بابنيها من زواجها الثاني، وتابعت تخبرها عن أشياء لا تعني للانشغال شيئاً، سوى أن «منى» تُبطِن في إجاباتها عذراً سخيفاً لغيابها عنها بسبب «طلال»؛ وليست هي.

تنظر «منى» إلى ساعة الحائط، بعد أن تناولتا العشاء، تطل على الجدة «عايشة» فتجدها نائمة. توصي «فجر» بها، وتخبرها بأنها ستأتي في الغد ليتناقشا أمر عودتها إليها. تستغرب «فجر» من تهرُّب «منى» الذي بدا واضحاً؛ عندما ظنت أنها ستكون معها، تجيب «منى»:

«يجب أن أخبر زوجي بذلك يا «فجر»، الأمر له أكثر من 15 عاماً، تريثي».

تعانقتا بحرارة تلسع الأعوام التي حُرِمت «فجر» منها. تحرِّر «منى» حضنها، تخبرها بأنه يمكن لها النوم في غرفتها، وتخرج. تظل «فجر» مع العاملة تتابعان التلفاز، ثم تصعد إلى الغرفة، تنظر من حولها؛ لعلها تجد شيئاً يعطيها أملاً. تفتح حقيبتها، تلبس بيجاما، تجمع شعرها، وتتقلب في الفراش، يجافيها النوم. تفتح الأدراج، تنظر في دفاتر وكتب أمها القديمة. تطل من النافذة على ذبول فسيلة النخلة، يدب الرعب فيها وهي تتذكر وقوفها أمام والدها وقت أتته بالقرار: «سأذهب إلى أمي».

تفاجأ «طلال»، منكسراً يشتكي إلى «حياة»، التي لم تستطع أن تُظهِر قوتها كذلك. لم يُرعِب «فجر» القانون، ولا غضب أبيها. جمعت أغراضها وسط ذهوله، قبَّلت «حمد»؛ بينما كان يرجوها أن تبقى، ثم غادرت إلى بيت الجدة.

تجُرّ «فجر» اللحاف، تنزل إلى جدتها «عايشة»، تفترش الأرض لتنام. صوت الهواء في الخارج يمنعها. يخرج أنين الجدة، يفزعها. تنظر إلى أمامها، فترى دولاباً أبيض مفتوحاً على مصراعيه، تقوم إليه، تجد بضع أثواب لجدتها تتدلى فوق خزينة تحمل أرقاماً، تحاول فتحها، لكنها مقفولة. تغلق الدولاب، تعود إلى مكانها، تسحب اللحاف لأنفها؛ لتمنع الرائحة الكريهة، وتتفحص السقف من فوقها متشرباً ببقع مياه قديمة.

- 2 -

مرّ الأمس صعباً في منزل النّهاب. عندما عاد «طلال» إلى منزله، ظل يشتكي لـ«حياة»، يعدِّد ما فعله لابنته طوال السنوات التي مضت، استمعت إليه «حياة»، ولم تستطع إخفاء حزنها عليها أيضاً، حاولت تصبيره، لكنه صبّ غضبه عليها أيضاً وخرج. افترشت سجادتها، وسخّرت دعاءها في الليل لـ«فجر».

أخذ «حمد» القصة من منضدة الصالة، حيث نسيت أمه أن تقرأها له ليلة الأمس، ترك الصالة، وصعد إلى غرفة أخته. لكنه طرق الباب هذه المرة؛ إلا أنها لم تكن موجودة، ولن يتسبب بغضبها. تذكَّرها في المكان تعلِّق على فعلته بسخرية. سحب الكرسي بجانب منضدة العطور، وبدأ يقرأ من القصة، حتى غفا عليها.

تصحو «حياة» صباحاً، لم تجد «طلال» على السرير. تعد الإفطار. تذهب إلى الصالة لتوقظ «حمد»، لم يكن موجوداً. تصفّ السفرة، وتنادي عليه بالحمّام. لا يرد. ثم تذهب إلى غرفته، بقيت على حالها منذ الحريق، فكَّرت أن تخبر «طلال» أن يبدأ بتغيير الأثاث فيها. تصعد إلى الطابق الثاني، قالت بأن الصالة أيضاً تحتاج لتغيير. شكّت في أن يكون بغرفة «فجر»، وكان فعلاً. تقترب منه، تسحب القصة من يده، تهمس في أذنه ليستيقظ، تساعده ليرفع رأسه. تسأله عن وجوده هنا. يدعك عينه اليمنى، ويردّ:

«ماما.. لماذا خرجت «فجر»؟».

«يا حبيبي، كم مرة قلت لك أمس، أمها تريدها بجانبها».

«وأنتِ؟ ألستِ أمها؟ ألا تريدينها بجانبك؟».

تستعجله للنهوض، واللحاق بها ليفطرا. جلسا على السُفرة. دخل «طلال» من الباب الخارجي، حيث لم يبت الليلة في البيت. سلّم عليهما، لم تُجبه «حياة». يقبِّل رأسها ويهمس في أذنها: «آسف». تشير إلى الطعام، فيجلس بجانب «حمد». تقسّم «حياة» الخبز بين زوجها وابنها. تأخذ حصتها، وتنحِّي القطعة الرابعة على المكان الفارغ بجانبها. يدغدغ «طلال» إبطي «حمد»، يضحكان، تتركهما «حياة» ليكملا الأكل وتصعد إلى غرفة «فجر».

يسحب «طلال» الجريدة بجانبه، يقلِّب الصفحات، بينما يتفحص «حمد» كاريكاتير اليوم على الصفحة الأخيرة المقابلة له. يظهر رجلان مسنان؛ كلٌ منهما يقف على طرف قارب مكسور، وولدان شابان يغطي نصفهما البحر، يلبس أحدهما طوق نجاة ويقترب من طرف القارب، والآخر يلبس قبعة تخرج ويغطي البحر وجهه، في الأعلى فقاعة محادثة تقول: «واســـطـــة!».

يعتدل «حمد» بجلسته ويستفسر من أبيه:

«أبي.. ما معنى واسطة؟».

يطوي «طلال» الجريدة ويضحك:

«ستعرفها لاحقاً يا ولدي».

يُكمل «طلال» تصفح الجريدة، تقع عيناه على عنوان رئيسٍ في صفحة الجامعة والتطبيقي:

«أسماء 5450 طالباً وطالبة مقبولين في الجامعة للفصل الأول 2008 ـ 2009».

يبحث بين أسماء الكليات التي سجّلت «فجر» رغباتها بها؛ كلية الحقوق، كلية الآداب، كلية البنات الجامعية. يمر على الحروف الأبجدية، يصل إلى الفاء.

«فجر طلال النّهاب».

يحمد الله، ينظر إلى ابنه فرحاً:

««فجر» قُبِلت بالجامعة.. أختك قُبِلت».

«لنتصل بها ونخبرها!»

تتلاشى ابتسامة «طلال»، فيقول:

«لا، هي ستعلم بنفسها».

تسللت إلى «حياة» صرخة «طلال» فرحاً وهو ينقل الخبر لـ«حمد». بينما هي تقفل خزانة «فجر»؛ التي لم يعد بها سوى بضعة ملابس، لم تكفِ حقيبتها. تتذكر عناقها قبل أن تخرج، وكأنها غادرتهم دون عودة. ترتّب السرير، تكنس الأرضية،

تفتح الأدراج، تنظفها. تجد مشرطاً، سكينة، نصلاً حاداً، قاطع ورق، وعلب حبوب لأدوية مختلفة. في الدرج الثاني، نتف أوراق صغيرة، تجمعها؛ لكن لم تستطع أن تقرأها.

تجمع زجاجات العطور الفارغة، تمسح المرآة المعلّقة خلف المنضدة، تنظر في عينيها، السواد تحت جفنيها صار أكثر سواداً. تدقق في ملامحها، تنتبه لظهور ندبة صغيرة في جبهتها، تفرق شعرها، تتذكَّر منذ متى لم تصبغ الشيب بالحناء؟، تتفحص شفتيها، شكّت في أنها صارت تتدلى كذلك. تتنهد، ثم تقول:

«يا حبيبتي يا «فجر»، كيف أعدّت لكِ والدتك الإفطار هذا الصباح؟».

- 3 -

تستيقظ «فجر» على صوت تلاوة عبد الباسط عبد الصمد، تنتشر في غرفة الجدة «عايشة». تقف العاملة بجانب سرير الجدة وهي تطعمها أكلاً مهروساً من إناء بلاستيكي. تبتسم لها العاملة، فتنهض من مكانها إلى الحمّام، تغتسل، ثم تعود إلى الغرفة، تسأل العاملة:

«من الذي أدار إذاعة القرآن؟».

ترد عليها بأن هذه العادة لم تتركها الجدة عندما كانت في وعيها، فظلت هي عليها أيضاً. تسألها:

«بالمناسبة.. ما اسمك؟».

««راجيف»، لكن ماما كانت تقول «راجي»».

«حسناً يا «راجي»، أنا جائعة».

تشير «راجي» إلى الإناء الذي في يدها، وتومئ بعينيها لـ«فجر». تذهب «فجر» إلى الصالة، تشغل التلفاز بانتظار «راجي» أن تُحضِر لها الأكل. تعود إليها «راجي» بعد نصف ساعة وهي ممسكة ببيضة واحدة، لم تجد غيرها في المطبخ، وهي جائعة أيضاً. تضحك «فجر» وتوافق أن تشاركها بها.

تأتي «راجي» بأوراق جريدة قديمة، تفرشها على الطاولة أمام التلفاز، تقرِّبها إلى «فجر»، ثم تذهب لتعود بصحن البيضة المسلوقة مع قطع من الخيار وخبزتين سميكتين. تسحب «راجي» جهاز الريموت، تغيّر ما كانت تتابعه «فجر» إلى قناة تنقل أفلاماً باللغة الهندية، تجلس بجانب «فجر»، تقسم البيضة بينهما، وتطلب منها أن تأكل. تتذكر «فجر» سُفرة «حياة» العامرة في بيتهم. تسقط عيناها على تاريخ الجريدة «15 يونيو 2008»، فتسأل «راجي»:

«هل تصلكم الجرائد؟ أريد جريدة اليوم».

ترد «راجي» بأنها تحتفظ بالجرائد التي يأتي بها «فهد» كلما أتى إلى المنزل. يصلهما أنين الجدة في الغرفة.

تذهب إليها «فجر»، تشير لها على كل ما حولها، يزداد

أنينها. تنتبه إلى أن التلاوة توقفت. تبحث عن جهاز المُسجِّل في طرف الغرفة، تُخرِج الكاسيت وتشغله من جديد، ثم تطلق الجدة تنهيدة. تذهب «فجر» وتعود بقطعتها من الخبز، وتأكل على الكرسي بجانب سرير الجدة.

بينما كانت «فجر» تتملّى في عيني جدتها، تسمع «راجي» تناديها. تذهب «فجر» إلى «راجي»، فتجد خالها «فهد» في الصالة، تشير «راجي» إليه وهو يحمل جريدة. تلقي التحية ببرود، فيمد «فهد» الجريدة إلى «فجر» ويقول:

مبروك.. اسمك فيها.

تسحبها «فجر» منه، تفرشها على الأرض وتبحث عن اسمها بين المقبولين. يعلّق «فهد» بأنها لم تُسلِّم عليه، فتتجاهله. يتركهما ويذهب إلى والدته. تشارك «فجر» الخبر مع «راجي»، فتفرح لها الأخرى:

«خلص صرتِ كبيرة!».

«نعم، نعم، ستفرح أمي «حياة» و«حمد» بهذا الخبر كثيراً».

لم تنتبه إليها «راجي» وظلت تتابع الفيلم. بقي «فهد» في غرفة والدته، وراحت «فجر» تبحث بالمنزل عن هاتف لتتصل بـ «حمد». خافت أن يجيب والدها على الهاتف، فلم تتصل. فانتظرت في غرفة أمها «منى» حتى تصل ـ كما وعدتها يوم أمس.

صوت أذان الظهر من المسجد القريب للمنزل، يصادف وقت دخول «منى»، تسأل «راجي» عن «فجر»، تجد «فهد» يعترض طريقها إلى الغرفة. يبادلها نظرة شكّ، فتتأكد من عدم وجود «فجر» في الممر، تهمس له:

«انتظر».

تقاطع حديثها «فجر» وهي تحتضنها من الخلف، تقرِّب خدّها إلى أمها، تقبّلها وتطلب منها أن تنتظرها عند الجدة. تُكمل «منى» حديثها همساً مع «فهد»، يهددها ثم يغادر هو، وتلحق «منى» بـ«فجر».

كانت الجدة تغط في نوم عميق وقت دخلت عليها «فجر»، فأخذت تُقلِّب الأدراج التي بجانب السرير، مصحف، كتيبات أذكار، قصاصات مُصفرة لوصفات طبخ، صورة ملونة لـ«فجر» وهي صغيرة، وصورة داكنة الألوان لطفلين مدوّن خلفها: ««منى» و«فهد» عندما عاد والدهما من الحج». تمعّنت «فجر» في أمها عندما كانت طفلة، وقارنتها بصورتها كذلك، تحمل من شبهها الكثير. تنظر إليها الجدة بعينين نصف مغمضتين، تُقبِّل «فجر» رأسها. تدخل «منى»، تسلّم على الجدة، وتجلس في طرف السرير مواجهة «فجر»، وتبارك لها قبولها في الجامعة. تُعقِّب «فجر»:

«أمي.. لِمَ لا تسكن ماما «عايشة» في منزلك؟».

«تحتاج إلى رعاية كبيرة، وأخاف ألا تستأنس المكان»..

سكتت لوهلة ثم أكملت:

«وزوجي سينزعج من وجودها، وسيقول بأن «فهد» موجود، وهو أحق بأن يرعاها عنده».

«إذاً، لِمَ لا يأخذها خالي؟».

موضوع قديم يا ابنتي، لا تنشغلي به.

تلتفت «منى» إلى الجدة، وتوجِّه حديثها إليها:

«ترتاحين هنا أكثر، صح أمي؟».

تئن الجدة وتوجه نظراتها صوب «فجر». تنظر «منى» و«فجر» إلى بعضهما، مترقبتين الكلمات أن تبدأ من إحداهما، ولا صوت يطغى في المكان سوى حركة المروحة المعلَّقة لقرابة الساعة. تكسر «منى» الهدوء، معلِّقةً على الجاكيت الذي تلبسه «فجر»؛ رغم حرارة الطقس. تستغرب من سرعة سحب «فجر» لأكمامها، وتدّعي أنها مريضة!

- 4 -

في غرفة «حمد»؛ الذي قرر أن يترك الصالة بعدما اشترى والداه أثاثاً جديداً لإعادة ترميم غرفته. سرير خشبي، لحاف يحمل شخصيات كارتونية لم يألفها «حمد»، لوحة صغيرة تحمل دوائر، طقم منضدة ودولاب بنفس نوع الخشب.

صارت «حياة» تقضي معظم وقتها هنا، تأتي بالأكل، بالدواء، بالصلاة، بالإلحاح للنهوض إلى الحياة في الخارج.

لكـن يصـرّ الولـد أن يحـدق فيهـا مسـتلقياً علـى سـريره بمحـاذاة النافـذة، لعـل أختـه تعـود مـن أحـد الشـوارع، يعـد البيـوت، السـيارات، الأحيـاء، الحدائـق. يقـول والـده بـأن بيـت جـدة «فجـر» بعيـد عـن بيتهـم، ولا يمكـن النظـر إليـه مـن النافـذة، فصار «حمـد» يعـدّ المناطـق، الطـرق السـريعة، الغيـوم، السـماوات. يصـرخ فيهـم ليـلاً باسـم أختـه، ولا يجيبـه شـيء. تأتـي إليـه أمـه فزِعـة، يجيبهـا:

«الطبيـب يقـول بـأن عينـي اليمنـى سـوف يقـوى النظـر فيهـا، لكنـي لا أجـد «فجـر»».

تقـرر «حيـاة» أن تبيـت علـى الأرض فـي غرفتـه. فـي الليلـة الأولـى لـم تـأتِ إلا باللحـاف، ثانـي ليلـة أتـت بالوسـادة، يؤلمهـا ظهرهـا، فتأتـي بمرتبـة إسـفنجية. يـزداد صـراخ «حمـد» كل ليلـة عـن التـي قبلهـا، يرفـض أن يشـارك فـي الوجبـات خـارج غرفتـه، فتشـاركه بهـا فـي الغرفـة أيضـاً.

كل صبـاح تدنـو «حيـاة» إلـى ابنهـا فـي سـريره، تنـزع عنـه بيجامتـه التـي لـم يغيِّرهـا منـذ أيـام. تراقـب أماكـن الجـروح التـي تحفظهـا، تعـدّ أيهـا التـأم منهـا، وأيهـا تمـددت رقعتـه بلـون مختلـف عـن بشـرته. خيـوط العمليـات وخطـوط الدبابيـس التـي تحـدد مـكان الحـروق. بعـد أن تمسـح بزيـت الخـروع، زيـت الزيتـون، العسـل، وكل مـا نصحهـا بـه صديقاتهـا وقريباتهـا. تنثـر «حيـاة» مـن قنينـة مـاء زمـزم فـي يدهـا علـى جسـده. أهدتهـا أمّ

محسن غالوناً منه في زيارتها الأخيرة لمكة، وزعته في قناني صغيرة، قرأت عليه بعض الآيات، لتصب منها على جسده ويشرب منه كذلك. تُلبسه بيجاما جديدة، تنفث المعوذات في أذنه، ولا يزال «حمد» محدقاً في فراغ النافذة.

هذا الصباح، يدخل دكتور «سيف» بصحبة «طلال» إلى غرفة «حمد». بعد أن ألحّ عليه «طلال» ليأتي لرؤية «حمد»، فهو رافض أن يذهب إلى المركز ثانية دون «فجر». تذكَّر الطبيب لقاءه الأخير مع «فجر» في يوليو، عندما انتهى «حمد» من العملية. أتت «فجر» إلى مكتب دكتور «سيف» فزِعة تخبره:

«دكتور، أمي تريد مني الذهاب إليها».

استرسلت بالحديث عن غضب أبيها، ونوبات القلق من «حياة» التي حذرتها مراراً من هذا القرار على صحة أبيها وردَّة فعله، أجابها «سيف»:

«أنتِ ماذا تريدين؟».

كانت تجوب مكتبه قلقة، تقول أشياء عن طفولتها عندما سخرت منها زميلاتها لعدم وجود أمها في حفل الأمهات، عن الليلة التي اكتشفت بها جسدها، ولم يُطمئنها أحد بأنها كَبرت أسرع عن أقرانها، فـ«حياة» كانت منشغلة بالطفل الجديد، عن أول جرح لمعصمها الذي انتشرت رقعة دمه على سريرها، وابتسمت «حياة» في وجهها، لظنها بأنه

لـم يكـن مـن يدهـا، ضمتهـا لتُبـارك لهـا دخـول عالـم النسـاء الكبيـرات. وراحـت «فجـر» لتسـأل إحـدى صديقاتهـا، فانتشـر الخبـر فـي المدرسـة أيضـاً. أطلقـت تنهيـدة لتسـتوعب مـا تقولـه للطبيـب! لكنـه لـم يبـدِ أيّ اسـتغراب، فتابعـت تتحـدث عـن كل مـرة تقتـرب إليهـا زوجـة أبيهـا، كانـت تنفـر منهـا؛ لأنهـا تشـتاق لوالدتهـا أكثـر. اسـتخلص «سـيف» إنصاتـه:

«أنصتي لما يقوله قلبك!».

عـرف «سـيف» بفعلـة «فجـر» أول مـا رأى نظـرات والدهـا «طـلال» خاليـةً منهـا.

يتقـدم دكتـور «سـيف» إلـى «حمـد» علـى سـريره، يطلـب مـن «حيـاة» و«طـلال» أن ينتظـرا فـي الخـارج. ويبقـى هـو ليحـدّق مـع «حمـد» فـي النافـذة، يتابـع الشـمس وهـي تتعامـد فـوق أسـطُح البيـوت المجـاورة، ينتبـه إلـى طيـر يقـوم بصنـع عـش فـي شـباك البيـت المقابـل. توتُّـر الوالديـن فـي الخـارج يـزداد، تنتبـه «حيـاة» إلـى أنهـا لـم تجهّـز الغـداء لهـذا اليـوم. يُصـدِر «حمـد» شـخيراً مـن التعـب، يقـاوم سـؤالاً نشـأ فـي رأسـه، ينتظـر لدقائـق، ثـم يـدور بجسـده نحـو «سـيف»:

«فيمَ تحدق؟».

«بالذي تحدق أنت فيه».

«أنا؟ لا أحدق في شيء».

«وأنا كذلك».

«لكني أنتظر أختي «فجر»».

«وأنا أيضاً».

متلهفاً ينهض «حمد»، مقابلاً «سيف»:

«فعلاً؟».

«نعم».

يسأل «سيف» «حمد» أين يضع ألعابه. يقوم «سيف» ليخرج الألعاب من أحد الأدراج، يصفّها ويختار لعبة الدومينو، يحمل المنضدة الجانبية ليقرِّبها إلى ناحية «حمد» أكثر. يصفّ القطع على اللوح، يختار سبع قطع، ثم يأمر «حمد» أن يفعل. بعد ثوانٍ، يمد «حمد» يده ويفعل. يبدأ «سيف» بوضع قطعة، ويطلب من «حمد» أن يستمر باللعب. واحداً تلو الآخر، يصفّان القطع بجانب بعضها، تتبقى القطعة الأخيرة عند «حمد»، يرميها على بقية القطع ويهتف:

«فزت!».

- 5 -

تفرش «راجيف» ـأو «راجي» كما تمت تسميتهاـ تفرش السماط لـ«فجر» في غرفة الجدة. بعد أن تضايقت «فجر»

من الأكل وحيدة في الصالة. صحن الأرز مع مرقة الدجاج بالخضار، التي لا تملّ من طبخها «راجي». قطعة فخذ أو صدر لـ«فجر»، ومعظم الخضار لـ«راجي»، لأنها لا تأكل غيره. بعد أن تقوم بهرس بعض الخضار مع الأرز للجدة. تقف «فجر» على مقربة من الجدة وقت الأكل، لأن أنينها يعلو كلما ابتعدت. تمدّ «فجر» يدها إلى الصحن في راحتَي «راجي»، تقرِّب الملعقة إلى فم الجدة حذِرةً من تناثر الأكل على الصدرية التي تلبسها. ينتهي أنين الجدة عندما تتناول الطعام بمساعدة حفيدتها.

تفرغ «فجر» من أكل غدائها بعد أن تطعم الجدة، تخبر «راجي» بأنها سوف تقول لأمها «منى» أن تأتي ببعض من اللحم؛ لأنها سئمت أكل الدجاج. تجمع «راجي» سفرة الأكل وهي ترطن بالهندية عن دلع «فجر» حول الأكل، تذهب وتعود لتنظيف ما تناثر من الرز على الأرض، ثم تشغل شريط القرآن، تسحب نظارتها بجانبها؛ وتعود لمتابعة التلفاز في الصالة.

تقترب «فجر» إلى الجدة، تقبِّل رأسها، تتلمَّس معصمها، يخطر ببالها أنها تشتاق لافتعال جرح جديد، تمرر يد جدتها على آثار الجروح الموجودة، تشعر بانتشاء. تتجول «فجر» في أنحاء غرفة جدتها ضجرة من الهدوء الذي يطغى على المنزل، تفتح الدرجين على جوانب السرير،

الـدولاب، تتفحـص فسـاتين الجـدة بنقوشـها التقليديـة، حجاباتهـا التـي تتشـابه بسـوادها، تسـحب ثوبـاً بقمـاش تـول أسـود مرصـع بالخطـوط الذهبيـة، يسـتخدم للرقـص فـي الخليـج، تلبسـه فـوق بيجامتهـا الزرقـاء، تلتفـت إلـى جدتهـا، فتجـد عينيهـا تحلِّـق مـن حولهـا. تضحـك «فجـر» خجلـة مـن نظراتهـا المتسـعة، تقـول:

«آسفة».

فتنزعـه، تسـحب الجـدة نفسـاً بانشـراح. تعـود «فجـر» تبحـث فـي الأدراج عـن شـيء تتسـلى بـه. تجـد مصحفـاً موضوعـاً علـى سـطح المنضـدة، تتلمَّـس صفحاتـه، تتسـاءل؛ منـذ متـى لـم تقـرأ مـن القـرآن؟

تنتبـه إلـى جدتهـا تحـدِّق فـي المصحـف، تقرِّبـه إليهـا، تتـوزع نظـرات الجـدة بيـن المصحـف و«فجـر».. تسـتغرب مـن تحديقهـا، ثـم تفهمهـا.

تسـحب «فجـر» لحـاف الجـدة ليغطـي قدميهـا تمامـاً، ثـم تفتح المصحـف، تقـرأ مـن أول صفحـة تأتـي عليهـا، بقـراءة جهرية:

[عَـمَّ يَتَسَـاءَلُونَ (1) عَـنِ النَّبَـإِ الْعَظِيـمِ (2) الَّـذِي هُـمْ فِيـهِ مُخْتَلِفُـونَ (3) كَلَّا سَـيَعْلَمُونَ (4) ثُـمَّ كَلَّا سَـيَعْلَمُونَ (5)]

تتابـع «فجـر» القـراءة بهمـس؛ بعـد أن لاحظـت أن الجـدة بـدأت تغفـو، تشـعر هـي بشـيء مـن الراحـة، لاقـت فراغـاً فـي

صدرها. تضع الخيط الأصفر حيث توقفت بالقراءة، تطبق المصحف، تسند رأسها إلى ساق الجدة، يغلبها النعاس هي أيضاً، وتدخل في متاهات الأحلام.

تربت «منى» على كتف «فجر»، بعد أن فتحت أنوار الغرفة. تستيقظ «فجر» من نوم هانئ، تلتفت للجدة؛ حيث تلمع عيناها عندما لاحظت نوم «فجر» على ساقيها. تُقبِّل «فجر» يمنى الجدة. تسألها «منى»:

«منذ متى وأنتِ نائمة؟».

«لا أعرف».

تلمح «فجر» حلكة الليل من النافذة، ترد:

«كانت الشمس ساطعة».

تصمت لوهلة، تتذكر شيئاً ما، فتسأل:

«هل أتيتِ برفقة ابنيك؟».

تُصرّ «منى»:

«إخوانك. لا لم أستطع، لديهم نادٍ صيفي، سأحاول في المرة القادمة».

تنهض «فجر» لتغسل وجهها، تبدِّل ثيابها، وتنزل إلى أمها؛ حيث أمرت «راجي» أن تطبخ لهم العشاء، من علب الأكل المثلجة التي أتت بها. تدنو «فجر»؛ تحط رأسها على صدر «منى» الأيسر، خطرت في بالها فكرة، كيف يكون صوت

نبض قلبها عندما تقترب منها. تستغرب «منى» من محاولة «فجر» أن تحشر رأسها في حضنها. تتسارع نبضات قلب «منى»، تلتفت إليها «فجر» وتقول:

«أمي.. إذا انتقلت لبيتك، هل يمكن أن نأخذ ماما «عايشة» معنا؟ لقد اعتدت على وجودها».

تبتسم «منى» وتكرر:

«سأحاول.. سأحاول».

تشعر «فجر» بمدى الصمت الذي لا ينتهي في كل مرة تأتي والدتها، تشعر بذنب ما يختلج في حنجرتها، لو أنها هي سبب هذا الصمت، لو أنها هي من يجب أن يبدأ بالسؤال، لكنها تخاف، صارت تخاف، تريد أن تجرِّب الخوف مع أمها، عن نظرات الأم شزراً التي تتحدث عنها صديقاتها، كُنّ جميعاً يعرفن مشاعر الخوف من الأم، المشاعر التي لم تألفها من قبل، لم تجربها، حتى من زوجة الأب، لم تكن «حياة» تشبه النمط التقليدي لزوجة الأب، لم تحمل لها شراً، لم تخطط لطردها، لم تنقب لها أخطاء تشي بها لـ«طلال»، «حياة» لم تكن زوجة أب، ولكن «حياة» لم تكن والدتها. بدأت تشعر «فجر» بأن نبضها هو ما صار يزداد، تتقلب في حضن أمها، ترجو أن تمدّ يدها وتضغط على قلبها، تخبرها أن ترتاح، تمسح على قلبها لترتاح، تمسح على رأسها لترتاح، تقبِّل بين حاجبيها لترتاح، تفتش بين أغراضها، تجد المقص دليلاً، أو

تعود تسأل عن الجاكيت الذي تلبسه صيفاً، أن تستخدم حقها كأُم، تفتش في ذراعيْ ابنتها، فتخاف «فجر»، فتخاف ابنتها، ثم ترمقها بالنظرة، ذات النظرة التي سترجع إلى صديقاتها وتفتح موضوع الغضب المتطاير من النظرة، فتقول كل ما فيها، خوفاً من النظرة. تتقلب «فجر» في حضن «منى»، تتعمد أن تضايقها في الحركة. ترتفع «منى» قليلاً عن الكنبة. تقول «فجر» في نفسها؛ ستسألني الآن، ستسحب أكمامي وتسأل. تزيح «منى» رأس «فجر» من حضنها، تقوم وتنادي عالياً:

«راجي».. أين العشاء، لقد تأخر الوقت».

تسحب «فجر» أكمامها أكثر، وتنكمش في طرف الكنبة بعيداً عن «منى».

تأتي «راجي» بصحون العشاء، تفرش صفحات الجريدة على الطاولة الصغيرة بين «فجر» و«منى». ترمي بالصحون وتأمرهما أن يأكلا. تضحك «فجر» على أسلوب «راجي»، ثم تقترب بجانب والدتها لتأكل. تفتح «راجي» التلفاز وهي ترطن بالهندية، تقلِّب في القنوات لتختار ما يعجبها من الأفلام. تلاحظ «فجر» صفحة الجريدة التي يأكلون عليها، تظهر إعلانات لمسلسلات رمضان 2008، تقرأ أسماءها، وأسماء الممثلين، ثم تنتبه على إشارة «الأسبوع القادم سيبدأ شهر رمضان المبارك!»؛ تتساءل إن كانت ستدعوها والدتها للإفطار في منزلها؟ فتقرر أن تترك لها الأمر لعلها تفاجئها.

سبتمبر - رمضان

- 1 -

يصحو من كابوس. التفت يميناً، لم يكن أياً من أصحابه واقفاً. يلتفت يساراً، لم يجد أخته عند النافذة. «حياة»، والدته، تقف أمامه فزعة من صراخه نائماً:

«ماذا بك؟».

لم يرُدّ. تنتشر الشمس في غرفة «حمد». تستعجله والدته للنهوض والتجهيز للذهاب إلى المدرسة. ينظر «حمد» إلى وجهه في مرآة الحمّام، يستعيد الحُلم، حيث رأى أصحابه مجتمعين في دائرة من حوله، يشيرون إليه ويطلقون ألفاظاً غريبة، رأى «فجر» من خلفهم، يلوِّح لها ولا تستجيب له. يسكب الماء على وجهه، ينتفض من برودته. يحاول أن يمط شفتيه؛ لا تتسع كفاية لتُشكل ابتسامة يبدأ بها يومه.

أتى بعصبة العين، يلبسها، ثم ينزعها. يستذكر الطبيب «سيف»، وقت أن أخبره باستعداده للذهاب إلى المدرسة، سأل نفسه:

«هل كان مستعداً؟».

يتفحص التعرجات على أذنه، يمر بسبابته على العِرق الظاهر، أخضر، يناصف جبهته حتى أنفه؛ الذي يبدو مدبباً بمنخارين أكبر. يستحضر صوت الطبيب «مشاري» يردد:

«شكلك سيصبح مميزاً».

يخرج «حمد» من الحمّام، يسمع أمه تلهج بالأذكار، أبوه استيقظ كذلك ليوصله. يتفحص لباسه المدرسي الجديد، معلَّقاً على الدولاب في غرفته؛ بنطلون رمادي، وقميص أبيض بأكمام طويلة، بعد أن ناقش «حمد» البائع في المحل، لمّا اصطحبته والدته الأسبوع الماضي؛ أنه يريد ياقة طويلة تستر تقرحات رقبته، ولم ينسَ أن يشتري قبعة قطنية تغطي رأسه، بفتحتين صغيرتين للعين، ضحك البائع وقال:

«ستبدو كمُجرم».

رمقه «حمد» مستنكراً وقاحته، فخجل البائع.

يمتنع «حمد» عن مساعدة أمه للباس، لكنه يضطر لطلب مساعدتها على غلق الأزرار. تدهن «حياة» بعطر له عبير الليمون على القميص، تقبِّل الخط الناتئ على جبهة ابنها، تُسلِّمه الحقيبة المدرسية بشكل سيارة سباق، وبذراع حديدية ممدودة ليجرها.

يتبع «حمد» والدته إلى الصالة، حيث حضّرت الإفطار

لـ«حمـد»، وقـد سـبقه والـده جاهـزاً بثوبـه الأبيـض والغتـرة، ويبـدو سـعيداً أكثـر مـن ابنـه.

يسألهما «حمد»:

«ألن تأكلا معي؟».

يرد «طلال»:

«إنه رمضان، ونحن صائمان يا بُني».

يُفلِت «حمد» اللقمة من يده:

«سأصوم معكما أيضاً».

تمسح «حياة» فوق رأس «حمد»، وتضيف:

«لكنه سيكون يوماً شاقاً عليك».

يعانـد «حمـد»، فتجمـع لـه والدتـه شـطيرة فـي علبـة ليأخذهـا معـه. ثـم ترتـدي «حيـاة» عباءتهـا، وتذهـب مـع زوجهـا لتوصيـل ابنهمـا إلـى المدرسـة.

- 2 -

«حمـد» واقـف أمـام الواجهـة. «حمـد» يتأكـد مـن خلفـه الطريـق. «حمـد» يحـاول أن يشـبه المندفعيـن نحـو البـاب. «حمـد» يتسـمر أمـام البـاب. «حمـد» يلتفـت لأمـه تلـوِّح لـه مـن السـيارة، بعـد أن فشـلت بإقناعـه لمرافقتـه حتـى الفصـل. «حمـد» يتأكـد مـن وجـوده قبـل أصدقائـه فـي سـاحة المدرسـة. «حمـد» يقـرأ لوحـة المدرسـة.. مـرة بعـد مـرة:

«مدرسة السنبوك الابتدائية للبنين».

«حمد» يتساءل:

«لِمَ عليه أن يذهب إلى المدرسة؟».

«حمد» يلتفت إلى أبيه، فيجده يشير بسبابته إلى بوابة المدرسة. «حمد» يتصنع لهما ابتسامة. «حمد» يسمع نبض قلبه.

«حياة» ما علمت قبل اليوم بأن «حمد» يستطيع أن يُظهِر حزنه بشفتيه. «حياة» ترقرقت عيناها. «حياة» تعضّ على عباءتها. «حياة» تولول، تصلّي، تقول لـ«طلال»:

«كأننا استعجلنا؟».

«طلال» يتظاهر بقوته. «طلال» يعرف ابنه القوي. «طلال» تربى بالقوة، كذلك سيفعل مع ابنه. «طلال» لا تترقرق عيناه. «طلال» يشعر وكأن مسماراً ينخر في رأسه. «طلال» يشير بيده لـ«حمد» بالدخول. «طلال» يشير لـ«حمد» بقلبه أن يبقى عند الباب لو أراد.

«حياة» و«طلال» سينتظران «حمد»، لو تصلب أمام البوابة الفصل الدراسي كله. صوت أبواق السيارات يتعالى من حول سيارة «طلال»:

«امشِ، خلِّصنا، يا الله، لدينا أعمال، الشارع ليس باسمك، متى تعرفون القيادة، من أعطاكم الرُخص، لدينا أولاد كما لديك، تحرَّك».

يقترب «حمد» إلى البوابة مع خطوات «محسن» الذي يسبقه إليها، وقد استقبله يقول:

«وجهك تغيَّر عن آخر مرة رأيتك بها».

«حمد» يتوتر. «حمد» يشكّ:

«هل يقصد صديقه للأفضل أم للأسوأ؟».

«حمد» يقف على العتبة الفاصلة بين مجهول المدرسة ومعلوم والديه في السيارة. «حمد» يعدل وضعية عصبة عينه اليسرى. «حمد» يثيره وقوف «محسن» ملوِّحاً في داخل ممر المدرسة بين الجدران الملونة وبعبارات تحفيزية. «محسن» يطلق لسانه. «محسن» يغني لحناً سخيفاً؛ يقول فيه:

«وصلت.. وصلت».

«محسن» يرفع غُرته عن عينه. «محسن» لا يكف عن الغناء. «محسن» يهرول إلى ساحة المدرسة هرعاً من ركض «حمد» ناحيته.

يلتفت الصبية إلى عصبة العين التي يضعها «حمد»، أكثر مما يثيرهم انتفاخ جانبه الأيسر بلون أحمر قانٍ. يتابع «حمد» طابور الصباح، لكنه لم يشارك أصدقاءه في ذات الفصل. يقف «حمد» في آخر الساحة عند طابور زملائه في الفصل الجديد، تربت معلمته للرياضيات «ندى» على كتفه وتقول:

«أهلاً «حمد»، ألن تقف في المقدمة كما كنت تحب؟».

يحدقها بطرف عينه، ويثبِّت أقدامه في المكان الذي اختار، بعيداً عن أعين الجميع، سوى زميله في الفصل «بندر»، يقف عن يمينه.

يتذكر أن «بندر» يصغره بعام دراسي، عَرَف ما كانت ترمي إليه والدته عندما حاولت أن تشرح له تعثُّره الدراسي، فقد سبقه أصدقاؤه إلى الصف الخامس. تذكَّر مشروع العلوم؛ بسببه تعثَّر دراسياً؟

لم يستطع «حمد» أن ينتبه إلى فقرات الطابور الصباحي، فقد كان منشغلاً بمحادثات «محسن» مع بقية أصدقائه بالصف الذي يقابله، وهم يوشوشون بينهم ويشيرون إلى «حمد»!

انقضى الطابور، وتفرَّق كلٌ مع معلمة فصله، يمشون في طابور واحد، «بندر» ظل يمشي في آخر الرتل، «حمد» من أمامه، اقترب إلى رأس «حمد»، يشدّ «بندر» السير الذي يثبت عصابة العين بعيداً ويفلته. يصرخ «حمد» من ألم رأسه، يلتفت إلى «بندر» وقد فرّ.

الفصل الأصفر ذاته، الدرج بالخربشات ذاتها، الكرسي الخشبي ذاته، السبورة البيضاء ذاتها، النافذة المكسورة ذاتها، السقف الأبيض ببعض البقع الداكنة، وبعض العلكة الملتصقة ذاتها، حتى المعلمة ذاتها، سوى أن بطنها انتفخ. والسؤال ذاته يتكرر في ساعة اللغة الإنجليزية:

«كيف قضيتم الإجازة الصيفية؟».

توالى الطلاب يتحدثون عن الرحلات البحرية والسفرات الأوروبية والعربية ومراكز الألعاب التي ملأوا بها فراغ الإجازة. فلما أتى دور «حمد»، صار يتلفَّت محاولاً أن تفهم المعلمة بتجاوز دوره بالحديث، ينكِّس رأسه، يجيب بالإنجليزية:

«المستشفى».

ضحك الطلاب. تعتذر له المعلمة؛ ثم تتجاوز السؤال سريعاً، وتبدأ بشرح منهج المادة.

يرن الجرس، معلناً بداية الفسحة الأولى. يخفق قلب «حمد» فرحاً بفرصة الذهاب إلى أصدقائه، حيث فصلهم الجديد. يركض إلى الطابق الثاني، يبحث بين فصول أقرانه، عن وجوه يشتاق إليها.

يقف «محسن» و«وليد» و«فواز» و«سليمان» عند أحد أبواب الفصول. يصل إليهم «حمد»، يمط بشفتيه، محاولاً إظهار ابتسامة. يعلِّق «سليمان» ساخراً:

«ماذا تفعل؟».

يضحك البقية، ثم يتابع «سليمان»:

«لِمَ تحاول أن ترعبنا بحركات وجهك؟».

يرفع ذراعيه باتجاهه:

«دعنا نخمِّن، أنت تقلِّد الأشباح؟!».

يتعالى ضحك الفتية. يرمق «حمد» شفتي «محسن»؛ هل امتدت كما يفعل كل من حوله؟

«محسن» يتظاهر بالانشغال بشطيرته، يقضم منها ليخفي ضحكته. «حمد» يقف لدقيقة، ليتأكد من أن «محسن» لن يضحك، وسيأخذه من يده ليجلسا بعيداً عن البقية. لكنه لم يفعل. يوليهم «حمد» ظهره، ويمشي ببطء نحو الدَرَج، لعل أحداً سوف يناديه. يصيح به «سليمان» من بعيد، يلتفت إليه، يهتف البقية:

«شَبَح».

يقرر «حمد» ألا يعود إلى أصدقائه ثانية، يجلس وحيداً وقت الفُسَح، ويحاول أن يخرج باكراً قبل أن يلتقي بأحد حين ينتهي الدوام. يجد والديه بانتظاره عند الباب.

يمرّ الأسبوع ممتلئاً بنظرات الصِبية، وتعليقات البعض، ودعوات المعلمات كلما يمرّ بجانبهن:

«مسكين.. الله يشفيك.. الله يصبر أهله.. هل شاهدتم الولد المحترق؟ أكيد أهله غافلون عنه.. كيف وصلت النار إلى نصف جسده.. يبدو أنه أصيب بالعمى بعينه اليسرى».

يطوف بين الفصول، أو في طريقه إلى الحمّام أو الإدارة المدرسية، تصله كلماتهم وتسميات كثيرة؛ يعرف أنه المعنِيّ بها:

«المحروق.. المعاق.. المُصاب.. كريم العين.. ذو العين الواحدة.. عصبة العين.. الانطوائي.. الوحيد.. أعاد السنة بسبب حروقه.. لقد كان فطِناً».

يدخل «حمد» جارّاً حقيبته بجانبه، لا يلتفت بالساحة إلى أحد، صار يتعمد أن يقف خلف «بندر»؛ بعد أن تضايق من أفعاله. يدفع «حمد» بحقيبته إلى ساقي «بندر»، يلتفت ليزجره. يرفع «حمد» رأسه لتحية العلم، وتحدِّق المعلمة في أول الصف بـ«بندر»، ليكفّ عن الإزعاج. يقهقه «حمد» قريباً من أذن «بندر».

يصير «حمد» أكثر فخراً بأفعاله العدوانية، يهدِّد هذا، ويتوعد ذاك، يصطنع صرخة إذا علَّق أحدهم عليه. لكنه يمشي عنهم جريح الضمير، يتألم من ردَّة أفعاله، رغم تحذيرات أمه «حياة» له في المنزل، التي لم يُلقِ لنصيحتها بالاً:

«لا يا ولدي، لا تتسبب بأذى أحد، ركِّز في دروسك».

يأتي وقت الفسحة، يلزم «حمد» درجه. يفتح زملاؤه في الفصل علب الأكل، يقاوم شهيته إلى رائحة فطيرة الجبن. يرفع «بندر» أمامه علبة عصير المانجو. يقول «حمد» في نفسه، كما علَّمته أمه:

«اللهم إني صائم».

يسكب «بندر» قطرات من العصير على منضدة «حمد»، يمدها ليصل إلى رأسه. يدفع «حمد» دُرجه بقوة، يتأوه «بندر» من الألم أسفل بطنه!

- 3 -

تتجاسر «فجر» على شروط أبيها، وتعاود الاتصال على البيت الذي تشتاق إليه. ترد «حياة» على الهاتف، تطلب منها خَجْلى أن تأتي لها بطعام من طبخها:

«لقد اشتقت لنَفَسك بالطعام!».

تسألها «حياة» عن الحشرجة في صوتها، تدَّعي أنه من المرض. تردف «فجر» بإخبار «حياة» عن جدتها ماما «عايشة»، وكيف أنها صارت تعتاد عليها. تستفسر منها «حياة» عن أوراقها الجامعية؛ ومتى ستبدأ الدوام. تجيب الأخرى بأنها أجَّلت الجامعة إلى الفصل الثاني، بعد أن تأكدت من صديقاتها بأنها يمكنها أن تتقدَّم إليها بالفصل الثاني، لأنها غير مستعدة نفسياً للدراسة. وقبل أن تُغلِق «حياة» الهاتف تقول لها:

«سأحاول أن أرسل لك طبق التشريب الذي تحبين».

تغلق «فجر» سماعة الهاتف في الصالة. تجلس أمامها «راجي» وهي تغمس قطعة خبز بكوب الشاي. تسألها «راجي» مع من كانت تتحدث، تزفر «فجر» وتجيب:

«أمي الثانية».

تترك «فجر» الصالة، وتذهب إلى غرفة ماما «عايشة»، توقف المذياع. تحدِّق بها ماما «عايشة»، تسحب «فجر»

المصحف من على الدرج بجانب السرير، وتبدأ بالقراءة. تترقرق عينا الجدة.

تغفو الجدة، بينما تنتهي «فجر» من قراءة جزأين من القرآن، وقت دخول صوت أذان العصر من المسجد القريب من المنزل.

تقوم «فجر» إلى الصلاة على السجادة بجانب سرير الجدة، مرتدية ثوب الصلاة الأخضر؛ الذي وجدته في الدولاب، بعد أن طلبت من «راجي» الأسبوع الماضي أن تقوم بغسله وكيِّه. تطيل في سجودها، ترفع يدها بعد الصلاة، تمسح دموعها حين تتذكَّر والدها يصرخ فيها:

«إن رحلتِ إليهم لا تفكِّري بالعودة!».

بينما كانت تشير إليها «حياة» من خلفه، وتعني أن تلجأ إليها في أي شيء تحتاج.

تنهض «فجر» من السجادة متثاقلة. تتجول في البيت؛ تبحث عن أي شيء ليمضي الوقت، تتصل بوالدتها «منى»، لا ترد، تستأذن من «راجي» أن تغيِّر قناة الأفلام الهندية، تحدِّق بها «راجي» فتعرِف الإجابة. تقرأ في الصحف والمجلات القديمة التي تتكدس تحت طاولة الطعام الصغيرة، يشتّت تفكيرها في القراءة أو التركيز في شيء. تخرج إلى حَوش البيت، تبحث عن دراجتها عندما كانت طفلة؛ التي تحدثت

عنها أمها، تجدها في مخزن صغير تحت أغراض كثيرة يملأها الغبار، وسجادات فارسية وعُدَد للصيد. تسحب الدراجة الصغيرة، زرقاء بمقعد إسفنجي، تظهر عليه بقايا رسومات ممزقة. تجرّ «فجر» الدراجة إلى حيث حوض فسيلة النخلة الذابلة، تحرّكها بيديها؛ بعد أن عجزت عن ركوبها، تدور حول النخلة، وتضحك على أسلوبها.

***

ينقشع ضوء الشمس، وتبدأ السماء تتبدل، تبيّن بعض الظلام بين الغيوم.

تصل «منى» إلى منزل والدتها، تقف بسيارتها أمام الباب وهي تتحدث في الهاتف مع أخيها «فهد»، حيث يصرخ:

«منى»، انزلي الآن ولا تختلقي الأعذار».

«تعِبت من التمثيل، أنت من أردتها أن تعود، لِمَ عليَّ أنا أن أدَّعي ذلك؟».

«إن فعلت أنا ذلك، فلن يكون لكِ شيء».

«حسناً، لا تهدد».

«هيا، هيا ادخلي واستقبليها بابتسامة وحضن ولا تقسي عليها».

تسكت لبرهة وتُسِرّ لنفسها: هو يعلّمني الحنان!

تغلق «منى» الهاتف قبل أن يتابع أخوها الحديث. تحمل

الأكياس من صندوق السيارة، وتدخل إلى البيت. تجد «فجر» تستند إلى جذع النخلة، بجانبها الدراجة، ويتقاطر العرق من جبينها. تقترب إليها «منى»:

«ماذا تفعلين؟».

«قلت أستعيد شيئاً من طفولتي».

تمدّ «منى» يدها إلى «فجر» لتساعدها على النهوض:

«قومي، سوف يؤذِّن المغرب بعد دقائق».

تدخل «فجر» و«منى» إلى البيت، حيث «راجي» افترشت السماط، وعليه طبق صغير من مرقة الخضار، وصحن الهريس الذي أرسله بيت الجيران. تضع «منى» الأكياس التي تحمل مأكولات مجمدة، وكيساً به طبق من المعجنات والسمبوسك الهندية وبعض من التمر. يفطران بعد سماع الأذان، تنظر «فجر» إلى أمها وتقول:

«أي عُذر جهزتِ اليوم لأبنائك؟ أقصد إخواني».

تتجاهل «منى» سخرية ابنتها، وتكمل الأكل على أنغام موسيقى الفيلم الذي تتابعه «راجي» في أول الصالة. تتفادى «فجر» الجلوس مع والدتها بعد الإفطار لمتابعة التلفاز؛ بعد أن سمحت لهن «راجي» بتغيير القناة إلى مسلسل كوميدي، وتضع «فجر» القليل من الهَريس لتطعم جدتها في الغرفة.

«إنه لذيذ، فكَّرت أنه سيعجبك أيضاً».

تمدّ «فجر» الملعقة إلى فم ماما «عايشة»، تمسح بالمنشفة آثار الأكل التي تبقت حول فمها، تزفر «فجر» وتقول:

«ليتها ما عادت».

تئن الجدة، وتستمر «فجر» بإطعامها، ثم تهمس:

«تظنين أنها سعيدة بعودتي؟ ... ليتك تتحدثين».

تهتف «منى» لـ«فجر» بأن حان الوقت لتنصرف، ووعدتها بالعودة كل يومين، وستطلب من زوجها أن تأتي «فجر» يوماً ما لتفطر عندها في المنزل. هزّت «فجر» رأسها، وصاحبت أمها عند الخروج من المنزل. صوت أذان العشاء يتقاطع مع توديعهما. تركب «منى» السيارة. تنتبه «فجر» إلى الرجال متوجهين إلى المسجد لصلاة التراويح. تلوِّح «منى» من السيارة لـ«فجر» مصطنعة ابتسامة. تجيبها الأخرى مصطنعة أيضاً، وتدخل «فجر» لتستفرغ كل سبها ولعناتها، آمالها وخيباتها، مشاعرها القديمة والجديدة، المتخبطة والموزونة، شوقها الذي يعترضه والدها. تسحب أنفاسها، تشهق. تدفع بثقل روحها، تزفر. ترمق دمعة متكورة في طرف عين جدتها، فترمي بثقل رأسها كله في حضن ماما «عايشة».

تستفيق «فجر» بعد أن غفت من فرط ما بكت. الأنوار مطفأة، التلفزيون في الصالة كذلك، لا وجود لـ«راجي»، تنظر إلى ساعة الحائط، الثانية فجراً. تعود لتفتح دولاب ملابس

جدتها، تُخرِج ثوباً زهرياً للصلاة فوق الخزنة المقفلة بأرقام. يستثير فضولها، تحاول أن تعبث بالأرقام، تعيد فتحها، ولا تستطيع. تتحرك الخزنة، تجد من خلفها رفاً آخرَ يحمل قرآناً وسبحة وعلبة حديدية بيضاء بخطوط بنفسجية، ورسوماً لزوجين مكتوب أسفلهما بالإنجليزية (ماكنتوش). تفتح العلبة، تجد بكرات خيوط، إبرة خياطة، أزرار مختلفة، مثبِّتات للشعر، قصاصات أوراق بأرقام هواتف تحمل أسامي؛ أم خالد، أم فيصل، أم جاسم، أمجد الخياط، أنور الكهربائي، مظفر السبّاك. تنتبه «فجر»، قصاصة ورق مكتوب فيها رقم تعرفه، تقرأ الاسم بجانبه؛ رقم بيت «طلال».

تقاطعها «راجي» واقفة عند الباب منذ فترة، رافعة حاجبها الأيمن:

«ماذا تفعلين؟».

تتلعثم «فجر» بالرد، تتلقف يداها العلبة، تعيد الأغراض فيها. تضحك «راجي» ثم تقول لها بأنها لم تتغير في العبث بأغراض الجدة؛ منذ أن كانت طفلة تزورهم في نهايات الأسبوع. «راجي» تسحب «فجر» خارج الغرفة، وتحكي لها كيف كانت تحب أن تختبئ عن الجدة داخل الدولاب، بين فساتينها، وتجرِّب أحذيتها بعض المرات. تخبر «فجر» «راجي» بأنها لاحظت ماما «عايشة» ترمقها عندما جرَّبت ثوبها الأسود. تتنهد «راجي» وتجيبها كم كانت ماما «عايشة»

تحبها، وأخبرت «راجي» عن الأثواب. تشير «راجي» إلى معصمها، وتردف برطانة متكسرة:

ماما لديها ذهب، ذهب، وفي بيرل، بيرل صغير.

تفهم «فجر» أن «راجي» تقصد معاضد الذهب واللؤلؤ، تومئ «راجي» وتتابع بأن الجدة خبأتها بالخزنة لتهديها لـ«فجر» عندما تكبر. تتثاءب «راجي»، وتقول:

«بس ماما لا تتحرك».

يخطر ببال «فجر» فكرة، تتردد بقولها، ثم تسأل:

«هل تعرفين رقم الخزنة؟».

«لا، ماما نسيت كل شيء من قبل، لكن ماما تسجِّل كل شيء على كل شيء».

لم تعرف «فجر» ما ترمى إليه «راجي»، لكن جمعت قصاصات الورق من العلبة، ثم أعادتها لمكانها. تسحب القرآن الذي بجانب الخزنة، تضم الثوب، ثم تشغِّل تلاوة عبد الباسط بجانب الجدة، وتصعد إلى غرفة أمها.

صارت تعتاد الغرفة، لا صوت ريح تتخيله في الخارج، ولا أحد يهز الستائر سوى هواء التكييف. رتبتها كيفما تشاء. تفرش «فجر» السجادة ناحية القبلة، تلبس الثوب الزهري، تأتي بالمصحف، تستمر بقراءة ما فاتها من الورد اليومي، تتذكر أين استوقفت بالمصحف الآخر. تواصل سورة طه:

﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾.

تشعر بأن الآيات تحاكيها، تمسُ شيئاً مركوناً في فؤادها، وتربط عليه. تصير أخفّ حملاً؛ بعد أن يجبرها النعاس على التوقف عن القراءة. تُصلي الفجر، وتغرس أصابعها في السجادة. ثم تذهب إلى النوم، تستلقي على الفراش، تنظر إلى الأعلى، تُفكِّر بحديث «راجي»؛ بينما تقلِّب قصاصات الورق في حضنها. يتعبها التفكير، ولا يتوقف لهج لسانها:

«ما دمت معي.. اسمع، وانظر. ما دمت معي.. اسمع، وانظر».

- 4 -

تحاول عينا الأبوين أن تلتقط إجابة. ويلتزم الابن الصمت.

تجلس في المقعد الخلفي للسيارة، تمسح على يمنى «حمد» بجانبها، تلتقي عينا «حياة» بعيني «طلال» من مرآة السيارة الصغيرة بتوتُّر، يلتفت «حمد» إلى الطريق منذ خروجه من المدرسة، متجاهلاً محاولات أبيه لاستجابته. تقلِّب «حياة» عصبة العين والقبعة؛ بعد أن انتزعهما «حمد» فور ركوبه السيارة. ثم ترجَّل بسرعة حين وصلوا إلى البيت، هرعاً إلى غرفته. يقاطع «طلال» «حياة» قبل أن تهتف لابنهما:

«اتركيه على راحته».

يصفق «حمد» باب غرفته، يتكور على نفسه، وينوح. تلتصق «حياة» عند الباب، تستمع إليه، بينما تنظر إلى الأعلى وتدعو له.

يقترب «حمد» إلى المرآة، يروح ليتأكد من زجاج النافذة أيضاً. يحاول أن يفتح فمه أكثر، لا يستطيع. يتذكر صبيحة اليوم في المدرسة، عندما دخل إلى الفصل مدعياً ثقته بعدم اقتراب أحد من زملائه أو مضايقته. جرّ حقيبته بجانبه، وجلس على الكرسي في نهاية الفصل. وجد على المنضدة بعض الرسومات الغريبة، مكتوب أسفلها (كاسبر). أدخل يده في درج المنضدة، وجد قصاصات ورقية تحمل رسمة الشبح الكارتوني (كاسبر). التفت إلى بندر خلفه، كان يكتم ضحكاته خوفاً من المعلمة.

انتظر «حمد» حتى انتهاء الساعة الدراسية، دفع كرسيه إلى الوراء بقوة. نهض ليرفع قبضة يمناه، وينهال على وجه «بندر» بالضرب. وجد مجموعة الطلاب من خلفه يهتفون:

«اضربه.. اضربه.. اضربه.. اضربه».

يرفع «حمد» يمينه ويُنزِلها، يلكم خاصرة «بندر»، بينما يُنازع الآخر ليدفع به. يتعالى صراخ الطلبة:

«اضرب التنين.. اضرب التنين».

يرمق «حمد» أصدقاءه وقد نزلوا من فصلهم ليشهدوا الشجار. يهتف «سلمان»:

«الشبح يضرب، والله عجيبة!».

يتفاوت صراخ الصبية، يتفاقم الخلاف بينهم؛ مَنْ ضد مَنْ؟، ومَنْ يقف مع «حمد»؟ ليأخذ لهم بثأرهم من «بندر»؛ الذي آذاهم من قبل. وبين الصبية الذين وقفوا للفرجة. وبين «محسن» الذي ظل واقفاً في آخر الصف، يرتعش جسده. تلاقت عينا «حمد» بـ«محسن»؛ وقت أن رمى «بندر» من ياقته، وساح بعض الدم من أنفه. لَبِس «حمد» قبعته السوداء وخرج من الباب. أوقفته إحدى المعلمات تصرخ:

«حمد». «بندر». إلى مكتب الناظرة».

يعود يتلمس وجهه في المرآة. يفتح فمه، لا يُخرِج ناراً. يرفع ذراعيه، يفحّ فحيحاً، لا يتحول شبحاً. يصرخ في انعكاسه: «مَنْ أنت؟».

يمد يده اليسرى، يعاين انفراج أصابعه وتشوهاتها، يضرب بها وجهه في المرآة؛ تماماً كما انهال على وجه «بندر».

يدفع «طلال» باب الغرفة، يجد أشلاء زجاج متناثرة على الأرض. يبحث عن «حمد» في الغرفة. صوت أنين يصدر من خلف الباب. تدخل «حياة»، تفتح الباب، تنظر إلى «حمد» محشوراً خلفه، منكفِئاً يهز جسده، يرفس برجله، سائل البول ينتشر من تحته، ويردد:

«شبح.. تنين.. شبح.. تنين.. شبح....».

أواخر سبتمبر. العشر الأواخر من رمضان

- 1 -

لا تزال «فجر» تبحث، في كل العُلب، والفراغات.

في كتب الطبخ التي تحتفظ بها الجدة بأدراج المطبخ. بين ألبومات الصور، في الرفوف التي تجاور التلفاز. في صناديق معدات السباكة، حقائب الأسلاك، أكياس ألعاب الباربي والسيارات المتحركة المرمية في المخزن. دواليب غرفة الضيوف، بين المقاعد الإسفنجية، تحت الطاولات. في علب الكرتون، دولاب الملابس في غرفة «فهد». تحت سرير الجدة، بين الفساتين والأثواب القديمة، سِلال الحمامات، مجلدات الكتب القديمة. تتعب من البحث، ترتاح قليلاً، ثم تعاود التنقيب.

تحتفظ «فجر» بكل ما تجده مدوناً بخط يد الجدة، بعد أن راجعته مع «راجي». تضحك «راجي» على عملية البحث التي شنتها «فجر»، بينما تبدو الأخرى أكثر جدية:

«لا تخبري أمي أو خالي «فهد» بذلك!».

فتبدي «راجي» المساعدة، لكل ما تجده مدوناً أيضاً. تستمر «فجر» بجمع الأوراق، صارت تعجبها اللعبة، لعبة البحث. تُسلِّيها في البيت عندما تنام الجدة، وتغادر «منى»، وتتابع «راجي» التلفاز. ليلاً، تفترش «فجر» الأوراق المُصفرّة والمتآكلة على أرضية الصالة، وتحاول أن تستجمع المكتوب. وصفات أكلات، مواعيد طبيب، أرقام حجوزات سفر، مذكرات «منى» وصديقاتها تعود إلى مرحلة الثانوية في الثمانينيات، أماكن سياحية لدول مختلفة في أجندة «فهد». تجد دفتراً صغيراً بغلاف أخضر، عليه ملصقات لشخصيات كارتونية، تبدأ بتصفُّحه، فتجد رسومات غير مفهومة، متفرقة، مذيلٌ في آخرها نجوم وعبارات:

«رائع.. ممتاز.. جميل».

تقلِّب الصفحات، فتلمح اسمها بين العبارات:

«هذه رسمة ابنتي الحلوة «فجر» في يوم 25 ـ 1 ـ 1993؛ عندما زارتني يوم الجمعة مع أبيها «طلال»».

تمد الصفحة إلى «راجي»:

«انظري، هذه رسمتي، إنها تحتفظ بها».

تمسح «راجي» بطرف إصبعها الدمعة التي غلبت «فجر» على خدها الأيسر.

تعود «فجر» لاستكمال وردها اليومي من القرآن في الغرفة:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (7)﴾.

تستوقفها قصاصات أوراق محفوظة بين صفحات المصحف، بجُمَل غير مترابطة، يبدو لها أنه يشبه خط الجدة؛ لكن بتعرجات كثيرة. تعود إلى أول الجزء الثلاثين، تجمع ما دوَّنته الجدة في الصفحات المتتالية:

«أنا بخير.. أنا أحفظ.. اسمي عائشة.. أبلغ من العمر أربعين، بل خمسين.. أظنني في الستين من عمري.. لديَّ أطفال.. زوجي في الأَسْر.. زوجي شهيد.. زوجي في الغرفة المجاورة.. زوجي مات.. أطبخ أكلاً لذيذاً.. أنا أحتفظ بقلائد كثيرة في الخزنة.. لديَّ ابن.. كان لديَّ ابن.. يبدو أنه مات.. تقول ابنتي.. نعم لديَّ ابنة.. ابني في الغربة.. يا رب أرجِع لي ابني».

تجد «فجر» ورقة مندسة في صفحة سورة الفجر، تفتحها:

«إنها تُذكرني بطفلة جميلة.. أعتقد أنها كانت صديقتي في الطفولة.. يا رب أين صديقتي؟ أنا أقرأ السورة للمرة العاشرة.. أنا لا أتذكر أين تكون صديقتي.. سألت العاملة، نسيت اسمها، هل يذكِّرها هذا الاسم بأحد فأجابت حفيدتي، هذا يعني أنني جدة! فتَّشت اليوم بين أوراقي المهمة التي أحفظها في الخزنة، اسمها مدونٌ في ورقة لم أتبين ما هي؟ تذكَّري يا «عايشة»، ثلاثة ... صفر...»

ترجع «فجر» إلى البحث في أطراف جميع السور، دوائر مدوّنة على رقم الجزء في المصحف، وآخر آيات سورة الفجر. تهرع إلى غرفة الجدة، الأنوار مطفأة، توقفت التلاوة. تفتح الدولاب بهدوء، ونبضاتها تسرع. تزيح الثوب الذي يغطي الخزنة، تدير الأرقام كما سجلتها في القصاصة.

«الجزء الثلاثون، الآية ٢٠، الصفحة ٤٨٠».

تُفتح الخزنة.

تزيح معاضد وسبائك الذهب، اللؤلؤ، بطاقات التموين، بطاقات العائلة، عقد زواج، عقد البيت، عقود إيجار، شهادات ميلاد. تجمعها كلها، وتخرج لتتفحَّصها.

ورقة تتبع ورقة، عَقد يتبع عَقداً، شهادات كلها تحمل أسماء تعرَّفت إليها، وأسماء لم تتعرف إليها. تقرأ كل بنود وشروط العقد. يمضي الوقت دون أن تشعر به، جالسة عند عتبة الباب، وأخيراً تجد اسمها، في مربع معنون في عقد البيت. تشهق، تصرخ، تتمالك نفسها.

تعود إلى غرفة الجدة، تنظر إليها نائمة. ترمق النافذة، حيث جذوع النخلة مائلة، والليل يخيِّم على السماء. تذهب إلى حَوش البيت، تصرخ بجانب النخلة.

تسمع حسيساً في الخارج. تفتح الباب، تنظر إلى مجموعة من الرجال والنساء في طريقهم ناحية المسجد، ينظرون إليها

مستغربين حالها تبكي. تتقدم إحدى النساء إليها، تسألها:

«هل تبحثين عن أحد؟».

تحدِّق بها «فجر» وتسأل:

«ماذا يحدث بالمسجد، لِمَ تتوجهون ناحيته؟».

«ذاهبون إلى صلاة التهجُّد، لعل الليلة تكون ليلة القدر!».

«هل يمكن أن تنتظري قليلاً؟».

تدخل «فجر» إلى غرفة جدتها، تسحب عباءة من الدولاب، وطرحة، تلبسهما، وتخرج إلى الشارع. تمد يدها إلى المرأة، تغلق باب المنزل خلفها، وتساير الذاهبين إلى المسجد.

- 2 -

يدخل «طلال»، عائداً من صلاة التهجُّد. يمشِّط الصالة المظلمة بنظراته، والممرات الهادئة، يصعد الدرج بتثاقل، سانداً كفَّه ناحية قلبه؛ كأنه يحميه من السقوط. يتتبع الضوء المنبعث من غرفة «حمد»؛ حيث ينام «حمد» على السرير، وتسهر «حياة» على سجادة الصلاة. يقرأ «طلال» في عيني «حياة» إجابة؛ لا تعجبه. يومئ إليها برأسه. تتْبَعه «حياة» خارج الغرفة، تسحب كفَّه عن صدره، تضعها على قلبها وتقول:

«اسمع.. أشعر به يدق، ينخر كل عظم فيَّ، أتظن أنك وحدك المُتعَب؟».

يسحب «طلال» كفَّه. يغلق باب الغرفة على «حمد». فتهمس «حياة»:

«لقد استخرت. بل صلّيت الليل كله لأجل الموضوع».

تصمت قليلاً، وتردف:

«طلال. الأطباء أدرى بعملهم».

يستذكر «طلال» و«حياة» قرار الطبيب «مشاري»؛ عندما صرخ في وجهه «طلال»، لمَّا قال:

«عليه أن يدخل إلى مركز الصحة النفسية».

حدَّق «طلال» في «حياة»، كان ينتظر منها ردَّة فعل ينكسر فيها الطبيب، أن تصرخ، أن تبكي، أن يُغمَى عليها من هول القرار. لكن «حياة» وقفت إلى جانب «مشاري»، وظل «طلال» يصرخ فيهما. قاطعته «حياة» تشكو تعبها من الأمر، قلَّة حيلتها، نفاد صبرها، وخوفها على ابنها؛ هو ما يدفعها لأن تأخذ قراراً خارجاً تماماً عن دائرة معتقداتها. «حياة»، كادت أن تفقد عقلها لمَّا وجدت «طلال» يحمل «حمد» بين ذراعيه، ورمى الخبر دون مقدمات:

«كاد أن يودي بحياته!».

ارتعش «حمد» بين ذراعيْ «طلال»، يرفس الهواء، ويردد:

«ليرتاح الجميع.. ليرتاح الجميع».

يومها، كان «حمد» قد استغل خروج أبيه، وانشغال أمه، صعد بحذر إلى سطح المنزل. نظر إلى السماء متردداً. تعثَّر بين الأنابيب، وحاول أن يختبئ خلف صهريج الماء. راجع قراره؛ بينما كانت الشمس على وشك المغيب. اقترب على حافة السطح. نظر تحته، كان الشارع هادئاً. بعض البيوت توزِّع صحون الأكل على الجيران. راقب أول الشارع، خوفاً أن يعود أبوه قبل أن يقرر. تذكَّر نياح أمه في حضن أبيه:

«لقد تعبت، تعبت».

وافقها أبوه. فسَّر «حمد» بأنه المعنِيّ بكل ذلك التعب.

مَرجَح رجله اليسرى في الهواء، نظر إلى الخدوش عليها. ردد في نفسه:

«ليرتاح الجميع».

لم يقوَ على الاستناد برجله اليمنى، فسقط في مكانه. راجع كل التفاصيل، الحريق، ليالي المستشفى، فصعوبة العودة إلى المنزل، فمغادرة «فجر»، فمواجهة «حمد» للمدرسة، فتنمُّر زملائه. ثم قرار الطبيب «مشاري». عدَّد كل المُتعَبين من الموضوع، حاول أن يدس نفسه بينهم. حاول أن يلوم أحداً، فتذكَّر البرنامج، فأدراج المطبخ، فالشموع، فالقداحات. نظر إلى السماء متردداً، فصرخ بقوة.

دخل «طلال» من باب السطح، لم ينتبه «حمد» من وصول

سيارة أبيه؛ بينما كان يصوغ الأمور في نفسه. هرع «طلال» إلى «حمد»، قيَّده بذراعيه. رفس «حمد» الهواء وهو يصرخ:

«اتركني، ليرتاح الجميع».

أبلغ «طلال» الطبيب «سيف» بالموضوع، همّ بإخبار الطبيب «مشاري». تابع الآخر علاجه النفسي، رفض «حمد» التحدث إليه، ولا لأي أحد.

يصل صوت «حمد» من الغرفة، بينما يسند «طلال» رأسه على صدر «حياة». يلتفت الأبوان ويسمعانه يهذي بالمنام:

«ليرتاح الجميع.. ليرتاح الجميع».

- 3 -

تقف «منى» أمام «فهد» في غرفة الجدة. يحمل «فهد» الخزنة من الدولاب غاضباً. يوجِّه كلامه لـ«منى» وهو يهزّ الخزنة:

«ابن الوِز عوّام، ابن الوِز عوّام.. من يكون غيرها؟».

«اخفِض صوتك، أمي نائمة».

يضحك ضحكة ساخرة، ويتابع:

«لا تفهم.. أو فلتفهم!».

تتجاهله «منى»، تسحب حقيبتها من على الطاولة، وتخرج من الغرفة، يتبعها «فهد»، يرتفع صوته أكثر:

هل ما زلتِ تصدقين حكاية الخَرَف تلك؟

يُذكِّرها «فهد» باليوم الذي قرر فيه أن يهاجر، كان يحمل حقائبه عند الباب، ثم تبِعَته والدته وهي تتوعده بنسيانه، وسوف تجبره على الندم بفعلته، وأنها هي من أجبرته على عدم العودة. تحلف له «منى» أنها كانت معها في ذلك اليوم، حاولت أن تهدئها، وكانت الأم «عايشة» نادمة على قَسَمها، وقالت لـ«منى» بأنها سوف تسامحه فور عودته. ترفع «منى» سبابتها أمامه وتقول:

«أنت الذي لم تعُد».

تصمت لوهلة، تنكسر نبرة صوتها؛ يشوبها بعض الندم:

««فهد»، أنت تأخرت، وأنا لم أكن موجودة».

يصرخ مشيراً في حديثه عن والدته:

«لذا قامت أمك.. هي سبب الأذى!».

تقبض «منى» رأسها بكفيها، تحاول أن تجبره على الصمت أو الهدوء، كل شيء من هذا الحديث لا يعنيها. تبدأ تسرد له عن انشغالها بزواجها، وعدم استعدادها لمواجهة «فجر» مرة أخرى، وأن «فهد» حين عاد واكتشف الأمر؛ هو من أجبرها أن تعود إلى ابنتها. هو من أعاد لها مشاعر مضطربة، في الوقت الذي اعتادت على تمضية الحياة بدونها، عاد هو وخطط لوحده لعودتها إلى أحضانها. هو الآن يطلب منها أن تذهب إلى «فجر»، تصرخ فيها، تهددها، تفعل كل ما لا

تعرف كيف أن تفعله، مع ابنتها التي تعرَّفت إليها منذ فترة قصيرة. «منى»، في قرارة نفسها، تريد أن تذهب إلى «فجر»، تقبِّلها، تحضنها، وتتأسف لها، «منى» تشعر بأن عودة «فجر» إليها أحيت مشاعر تناستها، لكن لم يسلبها منها الزمن، «منى» تريد أن تصرخ في أخيها، تهدده، وتفعل كل ما تعرف أن تفعله مع أخيها الذي يحب نفسه منذ فترة طويلة، ولم يفعل أمراً حسناً معها في حياته، سوى أنه أعاد ابنتها إلى أحضانها.

يقترب «فهد» من «منى»، يمسك بكتفيها، يرجهما بقوة ويصرخ:

«اصعدي إليها الآن، فلتأتِ بكل ما أفرغته من الخزنة».

تنزل «فجر» من الدَرَج، فاردة صدرها، بخطوات متمايلة، تلفح شعرها الذي قصّته في الصالون، حيث ذهبت مع المرأة التي صادقتها منذ أن رافقتها إلى المسجد. تمرّ «فجر» بين «منى» و«فهد»، تدخل إلى غرفة الجدة، تُقبِّل ما بين حاجبيها، ترفع صوتها لتقول:

«عيدك مبارك ماما «عايشة»».

تفتح الجدة عينيها، تتلألأ. وسط نظرات «فهد» الحانقة، و«منى» المنكسرة. يحدِّقان بأناقة «فجر»، ثقتها في المشي، كُحل يبرز عينيها، وخشخشة معاضد الذهب في يمينها تزيد «فهد» اغتياظاً. يستوقف «فهد» «فجر» عند خروجها من

الغرفة، يصيح بها، يتوعدها شراً، يطلب منها أن تأتي بكل ما وجدته:

«ليس لكِ أي حق فيه».

تضحك «فجر» باستهزاء:

«وهل كان لكما الحق عندما خططتما لاستعادتي؟ الحق يرجع لأصحابه يا خالي!».

تتجاهل «فجر» زجر «فهد»، نذوره ووعيده، تكمل خطاها إلى نحو الباب الخارجي، وتتبعها أمها تطلب منها أن تقف لتتفاهما. يتركهما «فهد» ويهرع إلى الطابق الثاني ليفتش في أغراض «فجر»، رغم عدم علمه بأن «فجر» جمعت كل أغراضها، بما تحويه الخزنة، سوى العقود التي تخص جدتها، حملتها في حقيبة يدها، وطلبت من المرأة التي رافقتها أن تأتي لاصطحابها في ظهر العيد.

تلتفت «فجر» مرة أخيرة إلى والدتها، لتُكذِّب نظراتها المنكسرة، حديثها بالندم على ما فعلت مع خالها؛ وأنها فعلاً لا تريد أن تنقطع مرة أخرى عن ابنتها. تفتح «فجر» الباب الخارجي، المرأة في سيارتها أمام الباب بانتظارها. تستجمع «منى» كلامها وتسأل:

«إلى أين تذهبين؟».

«إلى أهلي».

تقترب «فجر» إلى والدتها «منى»، وتضيف:

«لم تكوني يوماً أهلاً بهذا الشرف».

- 4 -

تدخل «فجر» إلى الصالة، متتبعة والدها «طلال»، حانقاً من عودتها. أقَسَمت له حين فتح الباب، بأنها سوف تخبره بكل ما حدث؛ وسوف يغفر لها. تتفحَّص الصالة؛ مستذكِرة الأعياد السابقة، عندما كانت تستقبلها «حياة» بروح خاصة. بخور العيد، دهن العود للعيد، مائدة إفطار العيد، باقة زهور للعيد، فستان العيد.

تنظر إلى «حياة»، وقد لا يبدو عليها أي فرحة سابقة، بل ناحلة الجسد تغفو على مسند الكنبة، فمها مرتخٍ، حتى يداها تخلو من الحناء التي كانت تحب أن تستقبل العيد بها. تنزل «فجر» إليها، تهمِس:

«أمي.. أمي «حياة»».

تُفيق «حياة» فزِعة، تظنه حلماً. تدعك عينيها لتتأكد من حضور «فجر» أمامها. تتفحص وجهها، تقرص وجنتيها، تفرد ذراعيها، تقبِّل كتفها، وتقبِّل الأخرى رأسها، يتبادلان التهنئة، وتسحب «حياة» «فجر» لتجلس بجانبها، بينما تنظر إلى «طلال»، خوفاً من ردة فعله. تبدأ «فجر» الحديث:

«أعتذر بشدة.. سوف أعود إلى البيت».

تقاطع «فجر» أباها قبل أن يرد. تخبره بشأن خالها وجشعه، طمعه، ومساعدة والدتها «منى» بذلك. تسرد لهما ما حدث، تشير إلى جدتها، العلاقة التي نشأت بينهما بالصمت، تلتفت لـ«حياة»؛ وتؤكد لها أنها سوف تحبها لو التقت بها. تعرج على موضوع العقد. يبدو على «طلال» القلق، وهو يُنصِت.

تتوقف «فجر» عن الحديث فجأة، بعد أن تذكَّرت «حمد». يرمق «طلال» «حياة» بطرف عينه؛ تاركاً لها المهمة للحديث، ويخرج من البيت متوارياً قلقه، وغضبه. تجيب «حياة» «فجر»، تخبرها بشأن محاولة الانتحار، والقرار الذي اتخذوه، تُصعَق «فجر» من الأمر.

تصعد «فجر» إلى «حمد». تجده منكفئاً على سريره، يئن. تُناديه، يطالعها، يعود لينكفئ ثانية. تقترب منه:

اشتقت إليك..

يصرخ في نفسه:

«أنا كذلك».

يئن.

تحاوطه بذارعها، تُسِرّ في أذنه:

«أرجوك لا تستسلم.. أنا معك.. أرجوك».

نوفمبر، 2017

يجلس «حمد» في الحديقة الخارجية للمنزل، حيث طلب من والده أن يستغل المساحة الصغيرة بجانب مواقف السيارات، افترشها بالعشب، واهتم بأنواع النباتات، وزهور ملونة تحاوط المكان. يتردد «محسن» على زيارته، ليجلسا سوياً في الحديقة، يتبادلان الأحاديث، والكتب، وليهديه «حمد» رطباً من النخلة في موسم الحصاد، أهدته إياها «فجر» عندما خرج من المركز النفسي، فصارت النخلة تثمر رطباً برحياً حلو المذاق.

ينظر «حمد» إلى الحياة من ذلك المكان، الذي صنعه لنفسه، ليستعيد فيه قوته، يعتمر قبعة تغطي رأسه حتى أذنه، ونظارة بعدسات سوداء كبيرة؛ تشمل أغلب وجهه. يستغل الأوقات التي يخرج فيها الناس إلى أعمالهم، ويدخل حين يرى الأطفال يخرجون للعب في الحيّ، خوفاً أن يشير إليه أحد. يُبقي نفسه منشغلاً أمام الحاسب المحمول، يكتب فيه أفكاره، أوجاعه، ويتابع الكتابة في ملف أسماه «مذكرات»؛ بعد أن قامت بنُصحه «فجر»، ليقوم بالتدوين عندما يبدأ بالقلق.

تخرج «فجر» من البيت إلى حديقة «حمد»، كما تعوَّدت أن تُسميها. تمسح على كتفه:

«كيف حال أخي الحبيب؟».

يبتسم لها «حمد»، بعد أن ترممت شفتاه، وصار يحب أن يظهر أسنانه كلما يبدأ الحديث مع أحد. تأتي «فجر» إلى زيارة «طلال» و«حياة»، لتطمئن على أحوالهما، ثم تذهب إلى «حمد»، ليخبرها بكل تساؤلاته، وهواجسه، ويعترف لها بأن جلساتهما الأسبوعية في الحديقة، أفضل علاج نفسي يتلقاه. تضحك «فجر» وتُردِف:

«ما أحوال الرواية؟».

يضحك «حمد»:

«ألا تعتقدين بأن الأمر مستعجِل على أن تطلقي عليها رواية؟».

تشهق وتقول:

«لا تقل لي بأنك لم تطبع الأوراق!».

يسحب «حمد» ملفاً أبيض من تحت الحاسوب، يمده إليها. تأخذه «فجر» بسعادة، وتضيف:

«أنا أقرر تسميتها!».

تضع الملف في حقيبة يدها، بينما يحدِّق «حمد» في

القلادة الذهبية التي تلبسها، ويتدلى منها نقش باسم «الله»، يتنهد «حمد». تغادر «فجر» إلى سيارتها أمام الحديقة. تعود إلى منزلها، الذي اشتروه منذ مدة قصيرة، في منطقة قريبة من منزل ماما «عايشة».

تدخل «فجر» البيت، تبحث عن زوجها «سيف»، تجده في غرفة الألعاب، يلعب مع طفلتيهما. تُسلم على «سيف»، بينما تحمل الطفلتين لتقبيلهما. ثم يستأذن «سيف» ليلحق موعد عمله. تشغِّل التلفاز للطفلتين في الصالة. تذهب لتبدِّل ملابسها في الغرفة. ترتدي بيجاما حريرية مُريحة. تمر بجانب المرآة، تطيل النظر فيها، تلاحظ خصلات الشيب تتخلل شعرها، تخبئها إلى الداخل. تنظر إلى معصمها الأيسر؛ حيث اختفت معظم آثار الندوب، لكن ظلت الرقعة المحترقة على إبهامها.

تُخرج الملف من الحقيبة، وتعود إلى الصالة. الطفلتان مستلقيتان على الأرض، تتابعان فيلماً كارتونياً. تستند على مقعد الـ(ليزي بوي) بجانبهما، تمد رجليها إلى الأعلى، تفتح الملف، تتصفح الأوراق. تبدأ:

الإهداء: إلى كل الأسئلة التي لم يُجَبْ عنها، حتى صارت ندبة!

يزعجها صوت التلفاز، تطوي الأوراق وتلتفت إلى الطفلتين تأمرهما:

«حيـاة»، «عايشـة»، اخفِضـا صـوت التلفـاز؛ أريـد أن أركِّـز فـي القـراءة».

تمد «فجر» يدها لتنتشل أخاها من وسط الحريق.

تـمـت،،،

2018/7/19 ـ 2018/7/6

المؤلف

يوسف علي الجيران

مواليد: 1993 - الكويت

- حاصل على بكالوريوس الآداب - قسم العلاقات العامة والإعلان - جامعة الخليج للعلوم والتكنولوجيا.

صدر له:

- رواية - تقاسمنا الحنين.